

آراء في السُّجون

رولان أبو شديد

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

رولان أبو شديد

آراء في السُّجون

منتدى المشرق والمغرب للشؤون السجنية
[مشروع بتوقيع أمم للتوثيق والأبحاث]
دفاتر المنتدى [١]
بيروت، ٢٠٢٠/٢٠١٩
هاتف: +٩٦١ ١ ٥٥٣٦٠٤
صندوق بريد: ٢٥ - ٥ الغبيري، بيروت - لبنان
مراجعة وتدقيق: صلاح الجيلاني


للأرشيف والأبحاث
Documentation & Research
www.umam-dr.org


MENA
PRISON
FORUM
منتدى المشرق والمغرب
للشؤون السجنية
www.menaprisonforum.org

إن الآراء الواردة في هذه المَطْبُوعَةِ التي كان إنجازها ونشرها
يَدْعَمُ مِنْ «مَعْهَدِ العَلَاقَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الخَارِجِيَّةِ (ifa)» - (المُمَوَّل
مِنْ وَزَارَةِ الخَارِجِيَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ) - إن هذه الآراء تُعَبِّرُ، حَصْرًا، عَن
وُجْهَةِ صَاحِبِهَا وَنَاشِرِهَا، وَعَلَيْهِ فَهِيَ لَا تُلْزَمُ، بِأَيِّ شَكْلِ مَن
الأَشْكَالِ، المَعْهَدَ، وَلَا تَعْكِسُ، بِالضَّرُورَةِ، مُقَارَبَتَهُ المَوْسَّسَاتِيَّةِ مَن
المَسَائِلِ مَوْضُوعِ البَحْثِ والرَّأْيِ.


ifa
Institut für
Auslandsbeziehungen
Auswärtiges Amt


في تقديم ناقص حتى إشعار آخر...

حَقُّ هَذِهِ «الآراء»، كَأَيِّ مَطْبُوعَةٍ يُسْتَأْنَفُ نَشْرُهَا، أَنْ يُقَدَّمَ لَهَا بِأَسْهَبِ مِنْ هَذَا التَّقْدِيمِ الْمُوجِزِ - وَلَا سِيَّمَا تَعْرِيفًا بِصَاحِبِهَا الْجَامِعِ مَجْدَ مَهْنَةِ الْمُحَامَاةِ، وَهُوَ مَجْدٌ سَهْلُ الْمَنَالِ نِسْبِيًّا، إِلَى مَجْدِ «التَّطَوُّعِ» لِاخْتِبَارِ التَّجْرِبَةِ السَّجْنِيَّةِ اخْتِبَارًا حَسْبًا وَذِهْنِيًّا مُبَاشِرًا حَيْثُ لَا حَاجِزَ مِنْ جُدْرَانِ عَالِيَةٍ، أَوْ مِنْ قُضْبَانِ سَمِيكَةٍ، أَوْ مِنْ رَوَايَةِ تَقْرِيْبِيَّةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَخْصِ الْمُخْتَبِرِ، وَهُوَ، بِلَا مَرِيَّةٍ، أَنْهَضَ كُفْلَةً لِمَا يُفْتَرِضُهُ مِنْ فُضُولٍ، وَيَقْتَضِيهِ مِنْ تَصْمِيمٍ، وَيَتَطَلَّبُهُ مِنْ شَجَاعَةٍ أَدَبِيَّةٍ، وَضَمَّ إِلَى ذَلِكَ كُلَّهُ مَجْدَ الرِّيَادَةِ، فِي لُبْنَانٍ عَلَى الْأَقْلَى، فِي خَوْضِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ.

تَسْلِيمًا مِنَّا بِأَنَّهُ كَذَلِكَ، حَاوَلْنَا، يَوْمَ عَقَدْنَا الْعَزْمَ عَلَى افْتِتَاحِ هَذِهِ السَّلْسَلَةِ مِنْ «الدَّفَاتِرِ» - دَفَاتِرِ مُنْتَدَى الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِلشُّؤُونِ السَّجْنِيَّةِ^(١) - حَاوَلْنَا وَوَسَعْنَا، أَنْ نَتَسَقَّطَ مَا قَدْ يَكُونُ مَكْنُونًا، بَعْدُ، فِي قَرَارَاتِ الصُّدُورِ وَالذَّاكِرَاتِ مِنْ سِيرَةِ رُولَانِ أَبُو شَدِيدٍ، وَمِنْ أَسْبَابِ اهْتِمَامِهِ الشَّخْصِيِّ وَالْمِهْنِيِّ بِ«الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ»، فَأَدْعُنَا اهْتِمَامَنَا بِهِذِهِ الْمَطْبُوعَةِ وَبِصَاحِبِهَا

(١) وَهِيَ سَلْسَلَةٌ كَثِيرَةٌ وَكَثِيبَاتٍ، لَا دَوْرِيَّةٌ مُنْتَظَمَةٌ لَهَا، مَدَارُهَا عَلَى الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ فِي أَبْعَادِهَا الشَّخْصِيَّةِ وَالْعَامَّةِ.

مِنْ خِلَالِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَطَرَفْنَا أَبُوَابَا، وَتَحَرَّيْنَا مَا أَمَكَّنَ التَّحَرِّيَّ. وَإِذْ وَفَّقْنَا إِلَى أَطْرَافِ حُبُوطِ فَلَا نَدَّعِي أَنَّ مَا حَصَلْنَاهُ قَدْ شَفَى مِنَّا الْعَلِيلَ أَوْ أَنَّهُ يَكْفِي لِيُوصَفَ بِالنُّبْدَةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِالرَّجُلِ...

فِي قُبُودِ نِقَابَةِ الْمُحَامِيْنَ، عَلَى مَا وَافَانَا مَشْكَورًا الْأُسْتَاذُ سَعِيدُ عَلَامَةَ، أَنَّ رُولَانَ جَرَجُورَةَ أَبُو شَدِيدٍ مِنْ مَوَالِيدِ الْأَوَّلِ مِنْ تَمُوزَ ١٩٣٦، وَأَنَّهُ بَدَأَ تَدْرُجَهُ فِي ٥ كَانُونَ الْأَوَّلِ ١٩٥٨، وَأَنَّهُ تَسَجَّلَ فِي نِقَابَةِ مُحَامِيِّي بِيْرُوتِ فِي ٨ آذَارِ ١٩٦١، وَلَا شَيْءَ غَيْرِ ذَلِكَ.^(٢)

أَمَّا فِي الْمَصَادِرِ الْمَفْتُوحَةِ الَّتِي كَانَ لَنَا إِلَيْهَا وَصُولٌ، فَإِشَارَاتٌ مَبْعَثَرَةٌ قَلِيلَةٌ إِلَى الرَّجُلِ بِوَصْفِهِ مَضْرَبٌ مَثَلٍ فِي الرِّيَادَةِ إِلَى التَّنَبُّهِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ السَّجْنِيَّةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى خَطَرِهَا. وَفِي الْمَصَادِرِ الْمَفْتُوحَةِ أَيْضًا بَيَانٌ مُؤَرَّخٌ فِي ١٩ تَشْرِينَ الثَّانِي مُدَيَّلٌ، فِي عِدَادِ تَوَاقِيْعِ أُخْرَى، بِاسْمِ الْمُحَامِي رُولَانَ أَبُو شَدِيدٍ تَأْيِيدًا لـ «الْحَرَكَةِ الَّتِي يَقُودُهَا الْإِمَامُ السَّيِّدُ مُوسَى الصَّدْر».^(٣)

أَمَّا فِي الشَّهَادَاتِ، فَلَقَدْ ارْتَضَتْ ابْنَتُهُ عَمَّةِ السَّيِّدَةِ مَارِلِينَ أَبُو شَدِيدٍ نَصَرَ أَنْ نَسْتَرُويَهَا مَا فِي ذَاكِرَتِهَا عَنْهُ، وَفِي مَا يَأْتِي تَدْوِينٌ لِمَا ائْتَمَّنَتْنا عَلَيْهِ بِالصُّوتِ وَالصُّورَةِ^(٤):

(٢) فِي ذَلِيلِ غَيْرِ مُؤَرَّخِ مُؤَسَّسِ بَعْنُوانِ دَلِيلِ خَرِيْجِي كَلِيَّةِ الْحُقُوقِ وَالْعُلُومِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ فِي جَامِعَةِ الْقُدَيْسِ يُوْسُفِ، يَأْتِي أَنَّ رُولَانَ أَبُو شَدِيدٍ «لُبْنَانِي، مُجَازٌ فِي ١٩٥٧، مُحَامٍ — الْمَنْزِلِ وَالْمَكْتَبِ: شَارِعُ فَرْدَانَ، بِنَايَةِ الْبَلَدِ» وَرَقْمًا هَاتِفِ.

(٣) نُشِرَ الْبَيَانُ الْمَذْكُورُ فِي عَدَدِ الْحَيَاةِ الصَّادِرِ فِي ١٩ تَشْرِينَ الثَّانِي ١٩٧٤. وَبِمَقْدَارِ مَا تَسْتَدْعِي أَسْمَاءَ الْمُؤَقَّعِينَ عَلَى الْبَيَانِ وَالْمَوْقُوعَاتِ الْبَسْمَاتِ الْعَرِيضَةِ، يَسْتَدْعِيهَا أَيْضًا مَا يُخْتَتَمُ بِهِ مِنْ نِدَاءٍ: «مِنْ هُنَا نَدْعُو السُّلْطَةَ إِلَى تَحْمَلِ مَسْئُولِيَّاتِهَا التَّارِيخِيَّةِ تَجَاهَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَإِلَى الْمُسَارَعَةِ فِي الْعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ رِسَالَتِهَا وَإِنَّا لَنُدْرِكُ أَنَّ أخطَارًا كَثِيرَةً سَتَنْجُمُ عَنْ تَجَاهُلِهَا أَوْ إِهْمَالِهَا. كَمَا نَدْعُو أَهْلَ الرَّأْيِ وَاللُّبْنَانِيِّينَ كَافَّةً إِلَى التَّنْفَاعُلِ مَعَهَا رَجَاءَ الْوُصُولِ إِلَى إِصْلَاحِ جَدْرِيٍّ يُحْفَقُ مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ لُبْنَانٌ مِنْ تَقْدِيمِ وَعَدَالَةٍ وَمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ تَطَوُّرٍ حَضَارِيِّ وَإِنْسَانِيٍّ».

(٤) مِنْ حَدِيثِ مَعَ مَارِلِينَ أَبُو شَدِيدٍ مِصرَ، ١ حَزِيرَانَ ٢٠٢٠.

«رولان أبو شديد هو ابن عمي شقيق والدي، والدُه جورج الذي هو عمي الأكبر... ونحن أربع شقيقات... لم أتعرف أنا وشقيقاتي الثلاث على أبناء عمنا جورج، أي إدوار، ورولان، وميشال، وابنة العم كليز، إلا في سن المراهقة بسبب من خلاف عائلي كان بين أبي وشقيقه جورج... أما الفضل في كسر الجليد بين العائلتين فيعود إلى والدي التي ألحّت على والدي أن ينأى بنا عن الخلاف الذي بينه وبين شقيقه ولاسيما أن العائلتين كانتا تقطنان في حي واحد — الحي المعروف اليوم بالعدلية... سررنا بالتعرف إليهم وسرّوا هم أيضًا بذلك... كسر الجليد بين العائلتين ولكن التباعد بينهما لم يزل ومن ثم فإن الزيارات بينهما اقتصرت على الأعياد والمناسبات... وإن أنسى لا أنسى انبهارى بمغارة عيد الميلاد التي كانت تضمها وتنفذها زوجة عمي، أي والدُه رولان، والتي كنا نسميها «تانت ماري»... كان فارق السن بيني وبين رولان حوالي العشر سنوات... أدهشني من رولان يوم تعرفت إليه ما بدا لي عليه من تدني — وزاد من دهشتي تلك أن التدني لم يكن من شيم عائلتنا... كان كثير الصلاة والمطالعة في الكتب المقدسة... في ما بعد علمت أنه كان عضوًا — لرُبما في مرحلة التعليم الثانوي — في جماعة «الشبيبة الطالبة المسيحية» وهي حركة شبابية كاثوليكية عرفت في لبنان، في الستينيات والسبعينيات، بمواقفها «التقدمية». في ما بعد أيضًا عرفت أن رولان كان محررًا لمُنْتدى يُعرف باسم «نادي الإثنين»، (كلوب دو لوندي)، تناقش في إطاره قضايا الساعة... ومما أذكره أيضًا أن شقيقتي نيللي ساعدت رولان أحيانًا في تنظيم هذه اللقاءات وفي إرسال الدعوات إلى المشاركة فيها... وأني حصرت بعضًا منها...

لا أعرف الكثير عن رولان المحامي... بيد أنني أتذكر أنه تدرّج في مكتب المحامي محسن سليم الذي كان على صلة بعمي جورج —

والِدِ رولان... وبالطَّبْعِ أَتَذَكَّرُ الصَّجَّةَ الَّتِي اسْتَثَارَتْهَا تَجَرِبَتُهُ السُّجْنِيَّةُ
وما نَشَرَهُ عَنْهَا... عَشِيَّةَ الحَرْبِ أَوْ لَرُبَّمَا عَلَى بَدَايَاتِهَا تَزَوَّجَ رولان
بِسَيِّدَةٍ فِي سَلِكِ القَضَاءِ... ثُمَّ غَمَرْتَنَا الحَرْبُ بِغِمَارِهَا وَفِي زَحْمَةِ
الحَيَاةِ وَالْمَوْتِ نَمَا إِلَى عِلْمِي أَنْ رولان وَعَائِلَتَهُ قَدْ حَزَمُوا حَقَائِبَهُمْ
وَهَاجَرُوا إِلَى كندا... يَوْمَ سَأَلْتُ كَلِيرَ عَن تَارِيخِ وَفَاةِ رولان قَالَتْ لِي
بِأَنَّهُ مَاتَ عَن خَمْسِينَ عَامًا... مَاتَ رولان؟ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ هَذَا
الفِعْلَ يَنْطَبِقُ حَقًّا عَلَى مَا أَصَابَهُ... كَأَنِّي بِهِ، كَلَّمَا اسْتَرْجَعْتُ صُورَةَ
الشَّابِّ البَشُوشِ المَهِيْبِ، ذِي البَشْرَةِ المَائِلَةِ إِلَى السَّمَارِ والعَيْنَيْنِ
العَسَلِيَّتَيْنِ، الَّذِي كَانَهُ - يَتَوَارَى فِي مَكَانٍ مَا...».

فِي الشَّهَادَاتِ أَيْضًا مَا أَفَادَنَا بِهِ مَشْكُورًا الرَّئِيسُ مَنِيْفُ حَمْدَانَ مِنْ أَنَّ
المُدَّعِي العَامَّ الَّذِي «قَطَعَ» مُذَكَّرَةَ التَّوْقِيفِ الوَهْمِيَّةَ الَّتِي دَخَلَ أَبُو شَدِيدِ
السُّجْنِ بِمُوجِبِهَا هُوَ القَاضِي مِشَالُ طَعْمَةَ. وَمِمَّا اسْتَذَكَّرَهُ الرَّئِيسُ حَمْدَانَ
أَنَّ الإِعْلَامَ صَجَّ أَيْضًا مَطَالِحَ السَّبْعِينِيَّاتِ بِحَدِيثِ الرَّجُلِ بَعْدَ تَعَرُّضِهِ لِلطَّعْنِ
عَلَى إِثْرِ مُرَافَعَةٍ حَمَاسِيَّةٍ لَهُ اسْتَثَارَتْ حَفِيظَةَ الجِهَةِ الَّتِي كَانَ يَتَرَفَّعُ ضِدَّهَا.
(مُحَادَثَةٌ هَاتِفِيَّةٌ مَعَ الرَّئِيسِ مَنِيْفِ حَمْدَانَ فِي ١٣ أيار ٢٠٢٠).

وَدِدْنَا أَنْ نُوفِّقَ إِلَى تَحْصِيلِ مَزِيدِ مَعْلُومَاتٍ عَنِ الرَّجُلِ فَنُقَدِّمَ لِهَذِهِ الآرَاءِ
بِأَسْهَبِ مِمَّا تَقَدَّمَ وَلَكِنْ هَذَا مَا كَانَ! وَإِذْ هُوَ كَذَلِكَ، لَا نَقْتَنِطُ أَنْ يَسْتَنْفِرَ
اسْتِئْثَانًا نَشَرَ هَذِهِ الآرَاءِ، حَمِيَّاتٍ مَنْ عَرَفُوا رولانَ أَبُو شَدِيدِ مِنْ أَهْلِ
وَأَصْدِقَاءِ وَزُمَلَاءِ، وَأَنْ يُوقِظَ ذَاكِرَاتِهِمْ وَذَاكِرَاتِنَهُنَّ فَيَمِدُّونَا بِمَا لَدَيْهِمْ عَنْهُ
وَلَدَيْهِنَّ، فَنَسْتَوْفِي حَقَّ الرَّجُلِ، فِي سِيرَتِهِ وَآرَائِهِ، مِنَ التَّقْدِيمِ فِي طَبَعَةٍ
تَالِيَةِ.

بِنَاءً عَلَيْهِ، لَا يَرَى هَذَا التَّقْدِيمُ بِأَسَا مِنَ الإِقْرَارِ بِمَا يَعْتَرِيهِ مِنْ نُقْصَانٍ...
أَوْ قَلْنَقْلٍ مِنْ نُقْصَانٍ حَتَّى إِشْعَارٍ آخَرَ.

آراء في السُّجون

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

إِذَا عَجَزَ الْمُجْتَمَعُ عَنِ إِزَالَةِ أَسْبَابِ الْإِجْرَامِ عِنْدَ أَبْنَائِهِ، فَلْيُمْتَنِعْ، عَلَى
الْأَقْل، عَنِ تَقْوِيضِ مَا تَبَقِيَ عِنْدَ مَسَاجِينِهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

يُنْضَاءُ فِي الْأُضَلِّ

مقدمة

بقلم الأستاذ عبدالله قبرصي

عزيزي الأستاذ رولان،

تحيّة طيّبة،

دَرَسْتُ بَحْثَكَ الْعَمَلِيَّ وَالنَّظَرِيَّ عَنِ السَّجْنِ وَالسُّجْنَاءِ. وَلَكُنْتُ أُحِجُّ عَنْ
إِبْدَاءِ الرَّأْيِ فِيهِ لَوْ لَمْ أَكُنْ أَنَا نَفْسِي سَجِينًا قَدِيمًا. فَقَدْ بَلَوْتُ جَمِيعَ
السُّجُونِ تَقْرِيًّا، مِنْ عَسْكَرِيَّةٍ وَمَدِينِيَّةٍ، أَجْنَبِيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ
سَبَبَ سَجْنِي كَانَ دَائِمًا صُمُودِي فِي عَقِيدَتِي وَتَشَبُّثِي بِمَا أَرَاهُ حَقًّا
بِلَادِي بِالْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ وَالرُّقْيِ.

إِنِّي أَوَّلُ مَا أَلْفْتُ نَظَرَكَ إِلَيْهِ أَنَّكَ نَسِيتَ نَسِيَانًا كَلِيمًا مَسْأَلَةَ «السَّجِينِ
السِّيَاسِيِّ». ففِي قَانُونِ بِلَادِنَا يُعَامَلُ السَّجِينُ السِّيَاسِيُّ كَأَيِّ سَجِينٍ آخَرَ.
إِنَّ فِي هَذَا ظُلْمًا لِلْسَّجِينِ فَوْقَ مَا يَكُونُ قَدْ أَوْقَعَهُ بِهِ الْقَضَاءُ مِنْ ظُلْمٍ.

إِنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ أَنْ تُطَالَبَ بِهِ فِي خِتَامِ بَحْثِكَ، إِلَى جَانِبِ مَبْدَأِ الْمُسَاوَاةِ
بَيْنَ السُّجْنَاءِ الْعَادِيِّينَ، مَبْدَأُ آخَرَ أَهْمٌ وَأَكْثَرُ ضَرُورَةً هُوَ إِيجَادُ نِظَامٍ
خَاصٍّ بِالسُّجْنَاءِ السِّيَاسِيِّينَ.

إِنَّ الَّذِي يُسَجَّنُ مِنْ أَجْلِ عَقِيدَةٍ أَوْ عَمَلٍ سِيَاسِيٍّ، مُحِقٌّ كَانَ أَوْ غَيْرَ
مُحِقٍّ، هُوَ إِنْسَانٌ ارْتَفَعَ عَنْ مُنْحَدَرِ الْجَرِيمَةِ الْعَادِيَّةِ إِلَى مُسْتَوَى تَحْمُلِ
مَسْئُولِيَّاتِ فُقْدَانِهِ حُرِّيَّتَهُ، فِي صِرَاعِهِ ضِدَّ الْوَاقِعِ، مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ
مُجْتَمَعٍ أَفْضَلَ وَحَيَاةٍ فُضْلَى.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، وإن أكن أفرك على مبدأ تصنيف السجّاء، وكافة ما ذكرته عن تنفيذ المرسوم الاشتراعي الصادر في ١١ شباط سنة ١٩٤٩، وعلى مبدأ تشغيل السجّاء القادرين على الشغل، أرى أن نشدد، نحن الذين أدرّكنا فواجع «عالم السجّان»، على إنشاء مدارس مهنيّة وعلميّة داخل السجون.

إنّ الجهل والانحراف الخلقي واليأس والعقد النفسيّة وانحلال الشخصية، كلّها يمكن أن تُعالج وتُشفى لو نظرنا إلى السجّان كمدرسة ومُستشفى معاً.

إنني عند خروجي من السجّان، وعلى مرّات عديدة، دعوت النقابات والجمعيّات والأحزاب ورجال الدين، إلى تبني قضيّة «السجّان» لا في لبنان وحسب، بل في العالم العربيّ، وفي كلّ عالم لم يجد بعد لقضيّة السجّان حلاً، وإلى النظر إلى السجّان الذي أخطأ وحكم لأسباب وأسباب، كمريض بحاجة إلى عطف، إلى حنو المجتمع، لا إلى انتقامه تمشياً مع النظرة الفرديّة العشائريّة المنتقمة الحاقدة.

السجّان المدرسة - المُستشفى - المصنّع، السجّان الإنسانيّ الذي نُصالح فيه السجّان مع نفسه ومع المجتمع، هو ما يجب أن ندعو إليه جميعاً - هو ما دعوت إليه منذُ أن تعرّفت إلى مأساة السجّان في بلادي.

إنني لعميق التأثير بأنك اختصّصتني دون سواي بتقييم دراستك، ولشاكرك لك هذه البادرة الوطنيّة الإنسانيّة، في اهتمامك بعالم السجّان والسجّاء.

لقد أثبت لي أنّ هذا الوطن لا بُدَّ أن يلتفت إلى نفسه، ويعود إلى ضميره، وأنّ يُحقّق مع الزمن - ونرجو أن يكون ذلك عاجلاً - الإصلاحات الاجتماعيّة - الإصلاحات التي تُؤدّي إلى إقبال السجون - وأنّ يُحقّق

بِالْوَقْتِ نَفْسِهِ لِلْسَّجِينِ الَّذِي أَصْبَحَ تَحْتَ رَحْمَةِ سَجَانِهِ وَسِجْنِهِ الْإِصْلَاحَ
الَّذِي يُعِيدُهُ إِلَى اعْتِبَارِ نَفْسِهِ إِنْسَانًا، وَالَّذِي يَجْعَلُهُ يُعْتَبَرُ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ
لَيْسَ جَلَادًا بَلْ مُصْلِحًا وَمُرَبِّيًّا وَطَبِيبًا وَمُعَلِّمًا.
إِنِّي أَشْكُرُكَ وَأُهْنِئُكَ،

وَأَسَلِمُكَ لِلدَّاعِي لَكَ بِالْخَيْرِ

عبدالله قبرصي^(١)

في ١٩٦١/١/١

(١) ... وَمِنْ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي تَسْتَتِيرُ الْفُضُولَ السُّؤَالَ عَنِ دَاعِيَةِ رَوْلَانِ أَبُو شَدِيدٍ إِلَى الطَّلَبِ
مِنْ عَبْدِاللَّهِ قُبْرُصِيِّ دُونَ سِوَاهُ أَنْ يُقَدِّمَ لِهَذِهِ الْأَرَاءِ. هَلْ لِمَا لِلْقُبْرُصِيِّ مِنْ «خِبْرَةٍ» سِجْنِيَّةٍ،
(انظر/انظري أدناه)، أَمْ لِأَسْبَابٍ أُخْرَى مُفْتَاخِهَا فِي مَحَطَّةٍ مَا مِنْ مَحَطَّاتٍ سِيرَتِهِ الذَّائِبَةِ؟
فِي التَّاسِعِ مِنْ شُبَّاطِ ١٩٩٦، نُشِرَ قُبْرُصِيِّ مَقَالَةً فِي صَحِيفَةِ النَّهَارِ تَحْتَ عُنْوَانِ «السُّجُونِ
والتعذيب في لبنان» اسْتَدْرَكَ فِيهَا تَقْدِيمَهُ لِآرَاءِ فِي السُّجُونِ. مِمَّا جَاءَ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ:
«لَيْسَ مَنْ هُوَ مِثْلِي خَبِيرٌ فِي السُّجُونِ! فَقَدْ زُرْتُهَا فِي حَبْسِ الْقَلْعَةِ وَسِجْنِ الرَّمْلِ فِي عَهْدِ
الانْتِدَابِ وَمَا بَعْدَ الْاِسْتِقْلَالِ [القلعة والرمل سجنان بيروتيان غابران]. وَكَمْحَامٍ عَتِيقِي لِي خِبْرَةٌ
فِي شَأْنِهَا طَوِيلَةٌ...

... وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ قَامَ أَحَدُ الْمُحَامِيْنَ الشَّبَابِ الْمَرْحُومِ رَوْلَانِ أَبُو شَدِيدٍ (عَلَى مَا أُذْكَرُ) بِزِيَارَةِ
السُّجُونِ كَسَجِينِ بِالْاِتِّفَاقِ مَعَ الْمُدْعِي الْعَامِ آنَذَاكَ وَاطَّلَعَ بِتَفْسِيهِ عَلَى الْحَالَةِ الرَّبِّيَّةِ الَّتِي
يُعَامِلُونَ بِهَا [كَذَا فِي الْأَصْلِ]...

كَتَبَ زَمِيلِي وَصَدِيقِي الْمُحَامِي رَوْلَانِ أَبُو شَدِيدٍ كِتَابًا عَنِ مُشَاهَدَاتِهِ فِي سِجْنِ الرَّمْلِ وَطَلَبَ
إِلَيَّ أَنْ أَكْتُبَ مُقَدِّمَتَهُ...

لَقَدْ كَانَ كِتَابُ رَوْلَانِ أَبُو شَدِيدٍ وَمُقَدِّمَتِي لَهُ، ثُمَّ مَا طَرَحْتُهُ فِي مَدْرَسَاتِي، عَبْدِاللَّهِ قُبْرُصِيِّ يَتَدَكَّرُ،
حَوَافِزًا لِأَخْذِ هَذَا الْمَوْضُوعِ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ وَلَكِنَّ أَحَدًا لَمْ يُحِرِّكَ سَاكِئًا. كَأَنَّمَا الْجَمِيعُ مُوَافِقُونَ
عَلَى أَنَّ السُّجْنَ فِي لُبْنَانَ مِثَالِي!

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

في السجون

واضحُ هذا البحثُ مُحامٍ شابٌ افتتَحَ بِضَرُورَةِ التَّعَرُّفِ عَن كَثْبِ إِلَى أَوْضَاعِ السُّجْنِ وَنَفْسِيَّةِ السُّجْنَاءِ لِمَا لِهَذَا الْاِخْتِبَارِ مِنْ فَوَائِدَ أَكِيدَةٍ عَلَى الصَّعِيدَيْنِ الْمِهْنِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ.

وَعَلَيْهِ، فَقَدْ أَفْتَحَ السُّلْطَاتِ الْمُخْتَصَّةَ بِوَجُوبِ التَّرْخِيصِ لَهُ بِدُخُولِ السُّجْنِ، وَتَمَكَّنَ بِالنَّتِيجَةِ مِنْ دُخُولِ سِجْنِ الرَّمْلِ فِي بِيْرُوتَ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ بِجُنْحَةٍ مَرْعُومَةٍ، (شَكِّ بِدُونِ مَوْوَنَةٍ)، وَقَدْ قَضَى فِي السُّجْنِ بِصِفَةِ سَاجِنٍ عَادِيٍّ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ وَثَمَانِ لِيَالٍ مِنْ ٢٢ إِلَى ٣٠ أَيْلُولِ ١٩٦٠ شَارَكَ خِلَالَهَا نَحْوَ ثَمَانِمَائَةِ سَاجِنٍ حَيَاةَ الْأَسْرِ فِي الْأَكْلِ وَاللَّبَاسِ وَالْمَنَامَةِ وَتَنَقَّلَ بَيْنَ ثَلَاثِينَ عُرْفَةً مُسْتَمِعًا إِلَى أَحَادِيثِهِمْ، وَمُنَاقِشًا آرَاءَهُمْ فِي شَتَّى الْأُمُورِ.

وعلى إثرِ هذا الاختِبَارِ الشَّخْصِيِّ وَضَعَ تَقْرِيرَهُ هَذَا بَاحْتِثًا فِيهِ النُّقَاطَ الثَّلَاثَ الْآتِيَةَ:

(أولًا) عَالَمَ السُّجْنِ وَنَفْسِيَّةَ السَّاجِنِ،

(ثانيًا) مَنَافِعَ السُّجْنِ وَمَسَاوِئِهِ،

(ثالثًا) إِصْلَاحَ السُّجُونِ.

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

أولاً: عالم السّجن ونفسيّة السّجين

(أ) ميزات العيش في عالم السّجن

يَعِيشُ السُّجَنَاءُ، فِي عُرْفٍ كَبِيرَةٍ عَالِيَةِ النَّوَافِدِ، مُسْتَقَلَّةِ الْمَنَافِعِ، أَرْضَهَا لَهُمْ فِرَاشٌ وَكُرْسِيُّ وَمَائِدَةٌ.

وَإِنَّ مَعَدَّلَ السُّجَنَاءِ فِي عُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ يُنَاهِزُ الْخَمْسَةَ وَالْعِشْرِينَ، وَقَدْ يَتَدَنَّى إِلَى عَشْرَةٍ أَوْ يَرْتَفِعُ إِلَى خَمْسِينَ رَغْمَ سَعَةِ الْعُرْفِ نَفْسِهَا.

(١) يومُ السّجين

يَبْدَأُ يَوْمُ السّجِينِ بَيْنَ التَّاسِعَةِ وَالْعَاشِرَةِ صَبَاحًا عِنْدَمَا يَسْتَيْقِظُ مِنَ النَّوْمِ بَعْدَ سَهْرٍ طَوِيلٍ يَجْعَلُهُ يَحْرِصُ كُلَّ الْحَرِصِ عَلَى سَاعَاتِ النَّوْمِ فِي الصَّبَاحِ. فَيَطْوِي فِرَاشَهُ وَلَا يَسْتَبْدِلُ لِبَاسَ النَّوْمِ أَوْ يَحْتَذِي حِذَاءً إِلَّا نَادِرًا وَقَدْ يَطْلُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَيَّامًا طَوِيلًا كَوْنُهُ لَا يَمْلِكُ غَالِبًا سِوَى لِبَاسٍ وَاحِدٍ بَيْنَمَا يَبْدُو بَعْضُ السُّجَنَاءِ شَبَهُ عُرَاةٍ.

وَتَتَعَكَّسُ الْحَالُ تَمَامًا إِذَا مَا دُعِيَ السّجِينُ لِلْمَثُولِ أَمَامَ السُّلْطَاتِ الْقَضَائِيَّةِ فَيَسْعَى جَاهِدًا لاسْتِئْجَارِ تَوْبٍ أُنِيقٍ مِنْ أَحَدِ السُّجَنَاءِ الْمَيْسُورِينَ.

وَمِنْ ثَمَّ يَطْلُبُ الْحَارِسُ مِنْ كُلِّ عُرْفَةٍ أَنْ تَبْعَثَ بِخَمْسٍ مِنْ سُجَنَائِهَا

إلى حَمَامَاتِ المِيَاهِ السَّاخِنَةِ، وَلَكِنَّ السُّجْنَاءَ يَتَحَاشَوْنَ الاسْتِنْفَادَةَ مِنْ هَذَا الامْتِيازِ الرَّفِيعِ عَلَى حاجَتِهِم الماسَّةِ إلى النُّظَافَةِ.

ويَصِلُهُمُ الأَكْلُ فِي السُّطُولِ مَرَّتَيْنِ فِي النَّهَارِ: فِي العَاشِرَةِ والنُّصْفِ صَبَاحًا، والرَّابِعَةِ والنُّصْفِ مَسَاءً. وَهُوَ خَلِيطٌ غَلِيطٌ مِنَ الحُبُوبِ المَسْلُوقَةِ بالماءِ تَنْقُصُهُ التَّوَابِلُ والصَّالِصَةُ وَيَفْتَقِرُ إلى المَوادِّ الغِذائِيَّةِ قاطِعًا كُلَّ شَهِيَّةٍ. وَقَدْ تَرى غَالِبِيَّةَ السُّجْنَاءِ المُفْرَءِ يُفَضِّلُونَ الحُبْزَ والجُبْنَ كَوْنَهُمَا عَكْسَ المَأْكُولَاتِ الأُخْرى، مِنَ النُّوعِ الجَيِّدِ. أَمَّا المِيسُورِينَ مِنْهُمُ فَيَأْتُونَ بالطَّعامِ عَلَى نَفَقَتِهِمُ الخَاصَّةِ مِنْ مَطْعَمٍ كائِنْ خَارِجِ السُّجَنِ أَوْ يَتَسَلَّمُونَ كُلَّ يَوْمٍ طَعامَ المَنْزِلِ سَاحِنًا مِنْ أَيْدِي ذَوِيهِمُ.

يَتَنَاوَلُ السُّجْنَاءُ الطَّعامَ مَرَّتَيْنِ فِي النَّهَارِ فِي أَوْقاتٍ غَيْرِ مُحَدَّدَةٍ تَخْتَلِفُ مَعَ تَعاقُبِ الأَيَّامِ. أَمَّا كَيْفِيَّةُ تَنَاوُلِ هَذِهِ الوَجَبَاتِ فَتَخْتَلِفُ مَعَ اخْتِلافِ العُرْفِ: فإِما أَنْ يَتَنَاوَلَ كُلُّ سَجِينٍ طَعامَهُ بِمُفْرَدِهِ وَعَلَى مَعزِلٍ مِنْ رِفاقِهِ، وإِما أَنْ يَنْقَسِمَ سَجْنَاءُ كُلِّ عُرْفَةٍ إلى رُزْمٍ مُتجانِسَةٍ يَنْقَسِمُ أَعْضاءُ كُلِّ مِنْها طَعامَهُمُ فِيمَا بَيْنَهُمُ، وإِما أُخيراً أَنْ يَجْلِسَ جَمِيعُ سُكَّانِ العُرْفَةِ حَوْلَ مائِدَةٍ مُشْتَرَكَةٍ واحِدَةٍ كَمَا يَحْضُلُ ذَليكَ فِي بَعْضِ العُرْفِ الصَّغِيرَةِ والمُتضامِنَةِ.

وعِنْدَ انْتِهاءِ الطَّعامِ يَنْتَقِلُ السُّجْنَاءُ مِنْ وَسَطِ العُرْفَةِ إلى أَطرافِها حَيْثُ يَجْلِسُونَ عَلَى الحِصائِرِ والمُفْرَشِ وَيُتَابِعُونَ أَحاديثَهُمُ المألُوفَةَ عَن جِرائِمِهِمُ وَخِصائِصِها، عَن بَرائِئِهِمُ الأَكِيدَةِ، وَنَقْصيرِ المُحامِينِ، وَظُلْمِ القُضاةِ، وَضُرُورَةِ العَفْوَ، وَنادِرًا ما يَتَطَرَّقُونَ إلى المَواضِيعِ السِّياسِيَّةِ.

ويَقومُونَ أحيانًا بِزياراتٍ إلى العُرْفِ المُجاوِرَةِ التي تَكُونُ مَفْتُوحَةً عَلَى بَعْضِها البَعْضِ فِي أَوْقاتِ مِنَ النَّهَارِ،^(١) وَإِذا لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنَ الخُروجِ إلى

(١) كذا في الأصل والأولى: «... التي تكون مفتوحة بعضها على بعض في أوقات من النهار...».

بَا حَةَ السَّجْنِ بِقَصْدِ النُّزْهَةِ زَرَعُوا الْغُرْفَةَ ذَهَابًا وَإِيَابًا تَحْرِيكًا لِلدَّمِ كَمَا يَقُولُونَ.

وَيَدَّخُنُ السَّجِينُ طَوَالَ النَّهَارِ، وَيَشْرَبُ عَشْرَاتِ فَنَاجِينِ الْقَهْوَةِ وَالشَّايِ، وَهُوَ دَائِمًا، لَا مَحَالَ، بَيْنَ أَمْرَيْنِ: أَوْ أَنْ يَتَكَلَّمَ، أَوْ أَنْ يُنْصِتَ،^(٢) مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْكَلَامَ امْتِيَازُ الْأَفْوِيَاءِ، وَالاسْتِمَاعَ وَاجِبُ الضُّعَفَاءِ.

وَيَنْتَهِي نَهَارُ السَّجِينِ حَوَالِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ مَسَاءً عِنْدَمَا يَفْرُغُ حُرَّاسُ السَّجْنِ مِنْ تَعْدَادِ وَتَفْقُدِ سُجْنَاءِ كُلِّ غُرْفَةٍ، فَتُقْفَلُ الْأَبْوَابُ وَيُضْحَى السُّجْنَاءُ بَعِيدِينَ عَنِ حُرَّاسِهِمْ فَيَشْعُرُونَ بِنَوْعٍ مِنَ الْحُرِّيَّةِ. وَيَبَاشِرُ كُلُّ مِنْهُمْ بِمَدِّ فِرَاشِهِ، وَغَالِبًا مَا لَا يَكْتَفِي السَّجِينُ بِالْبَطَانِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُقَدِّمُهُمَا الْإِدَارَةُ فَإِذَا بِهِ يُضِيفُ إِلَيْهِمَا فِرَاشًا مِنَ الصَّوْفِ أَوْ الْقُطْنِ أَوْ الْخِرْقِ يَتَنَاسَبُ حَجْمُهُ وَمُدَّةَ اعْتِقَالِهِ.

عِنْدَهَا يَجْلِسُ كُلُّ سَاجِنٍ عَلَى فِرَاشِهِ وَتَبْدَأُ السَّهْرَةُ الْجَمَاعِيَّةُ وَهِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ: أَوْ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَةً تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّقْصِ وَالْأَغَانِي وَالهِرْجِ وَالْمَرْجِ أَوْ أَنْ تَكُونَ هَادِيَةً رَصِينَةً تَقْتَصِرُ عَلَى سَرْدِ اخْتِبَارَاتٍ وَمَآثِرِ كِبَارِ السُّجْنَاءِ وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهَا فَيَخْلُصُ الْمُتَبَاحِثُونَ فِي آخِرِ السَّهْرَةِ إِلَى نَدْبِ حَظِّهِمْ، وَالتَّحَسُّرِ عَلَى فُقْدَانِ حُرِّيَّتِهِمْ، وَقَدْ يُمْسِي أَكْثَرُهُمْ شِرَاسَةً أَرْقَهُمْ قَلْبًا وَأَسْهَلَهُمْ دَمْعًا.

(٢) عِلَاقَةُ عَالَمِ السَّجْنِ بِعَالَمِ الْمُجْتَمَعِ

مَنْ قَارَنَ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ تَبَيَّنَ لَهُ بِأَنَّ وَاحِدٍ نِقَاطُ تَشَابُهُ وَنِقَاطُ اخْتِلَافِ.

(٢) كَذَا فِي الْأَصْلِ، «وَالأُولَى: إِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ أَنْ يُنْصِتَ».

وَمِنْ أَهَمِّ نِقَاطِ الْخِلَافِ أَنَّ عَالَمَ السُّجَنِ خَالٍ مِنَ الْأَهْدَافِ
وَالْمَشَارِيعِ وَرُوحِ الْمُبَادَرَةِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا عَالَمُ الْمُجْتَمَعِ وَلِذَا
فَالْجُمُودُ وَالاسْتِسْلَامُ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ يُسَيِّطِرَانِ دَاخِلَ السُّجَنِ حَتَّى
يَكَادُ يَتَرَاءَى لِلزَّائِرِ أَنَّ السُّجْنََاءَ بِحَالَةٍ إِضْرَابٍ مُسْتَمِرٍّ.

وَمِنْ خَصَائِصِ السُّجَنِ أَيْضًا بَسَاطَةُ الْعَيْشِ فِيهِ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ
بِحَيْثُ يَقْتَصِرُ اهْتِمَامُ السُّجْنََاءِ عَلَى الْأَكْلِ وَالنَّوْمِ دُونَ أَنْ يَكُونَ
لِعِلَاقَاتِهِمْ بِبَعْضِهِمُ الْبَعْضُ بِالْخُ أَهْمِيَّةً. (٣) فَلَا تَعْقِيدَ فِي حَيَاتِهِمْ
وَلَا تَنَوُّعَ حَتَّى إِنَّهُمْ يَظْهَرُونَ بِمَظْهَرِ الْقَوْمِ الْمُتَخَلِّفِينَ حَصْرِيًّا.

وَمِنْ أَعْرَبِ مَيَزَاتِ السُّجَنِ اعْتِمَادُ السُّجْنََاءِ لِلدَّفَاعِ عَنِ حُقُوقِهِمْ عَلَى
عُنُصْرَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ: الْقُوَّةُ وَالْأَلَمُ. يَلْجَأُ السُّجِنُ إِلَى الْقُوَّةِ أَوَّلًا لِتَحْقِيقِ
جَمِيعِ رَغْبَاتِهِ وَخُصُوصًا تَجَاهَ رِفَاقِهِ، وَعِنْدَمَا لَا يُؤَدِّي الْبَطْشُ إِلَى نَتِيجَةٍ
يَنْقَلِبُ السُّجِنُ إِلَى صِحِيَّةٍ، وَيُضْرَبُ عَنِ الطَّعَامِ، وَلَا يَأْنِفُ مِنْ تَشْوِيهِ
جَسَدِهِ وَفَتْحِ عُرُوقِهِ حَتَّى تَسِيلَ دِمَاؤُهُ. وَالغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْمُنَاوَرَاتِ
الضَّغْطُ عَلَى أَصْحَابِ النُّفُودِ وَخَاصَّةً عَلَى الْإِدَارَةِ لِحَثِّهِمْ عَلَى تَلْيِيقَةِ
طَلِبَاتِهِ.

وَمِنْ نَوَادِرِ السُّجَنِ أَيْضًا اسْتِعْمَالُ السُّجْنََاءِ لُغَةً خَاصَّةً بِهِمْ مُعْظَمُ الْفَاطِهَا
مِنْ أَصْلِ تَرْكِيٍّ كَأَنَّ يَقُولُونَ، مَثَلًا، «تَعِين» بَدَلًا مِنْ «خُبز»، (٤) و«بَخُورَةٌ»
بَدَلًا مِنْ «حَمَام»، و«قَاوُوش» بَدَلًا مِنْ «عُرْفَةٌ»، (٥) و«يَطِي» بَدَلًا مِنْ
«فِرَاش»، و«بِهِيل» بَدَلًا مِنْ «مُمْتَاز» إلخ.

(٣) كذا في الأصل، والأولى: «... دون أن يكون لعلاقاتهم بعضهم بعضًا، أو بعضهم ببعض، بالغ أهمية...».

(٤) في الأصل، «تَعِين» والأشيع ما أثبتناه.

(٥) في الأصل، «قافوش».

وَهَذَا الْأَمْرُ يُمَكِّنُ السُّجَنَاءَ مِنَ التَّدَاوُلِ بِمَوْضُوعٍ يَصْعُبُ عَلَى غَيْرِهِمْ فَهَمَهُ.

وَمَعَ هَذَا التَّبَايُنِ الْأَكِيدِ فَقَدْ تَجَدُّ بَعْضُ التَّشَابُهِ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ بِحَيْثُ يَبْدُو السُّجْنُ صُورَةً مُصَغَّرَةً عَنِ الْمُجْتَمَعِ. فِي السُّجْنِ تَتَمَثَّلُ جَمِيعُ الطَّبَقَاتِ وَالْأَحْزَابِ وَالطَّوَائِفِ، وَفِيهِ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، وَالْعَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَالسَّيِّدُ وَالْأَجِيرُ. وَيَجْدُرُ بِالذُّكْرِ أَنَّ السُّجْنَ يَتَطَّلَعُ بِاسْتِمْرَارٍ إِلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ وَيَعْتَبَرُ اعْتِقَالَهُ — حَتَّى لَوْ كَانَ طَوِيلَ الْأَمَدِ، مُجَرَّدَ زِيَارَةٍ عَابِرِ سَبِيلٍ.

(ب) — نَفْسِيَّةُ السُّجْنِ

تَتَمَيَّزُ نَفْسِيَّةُ السُّجْنِ بِالْوَحْشَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَلَوْعَةِ الْحِرْمَانِ وَالْهَجْرَانِ، وَأَنْحِلَالِ عُنَاصِرِ الشَّخْصِيَّةِ.

(١) وَحْشَةُ السُّجْنِ الْمَعْنَوِيَّةِ

السُّجْنُ مَسْجُونٌ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً دَاخِلَ الْجُدْرَانِ وَمَرَّةً دَاخِلَ أَفْكَارِهِ.

لِذَلِكَ تَرَاهُ يَعِيشُ فِي وَحْشَةٍ نَفْسِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ بِحَيْثُ يَجِدُ نَفْسَهُ وَحِيدًا أَمَامَ الدَّوْلَةِ وَأَجْهَزَتِهَا الْمَعْقَدَةِ وَمُمَثِّلِيهَا الْعَدِيدِينَ مِنْ رِجَالِ الْأَمْنِ الْعَامِّ إِلَى قُضَاةِ التَّحْقِيقِ وَالْحُكَّامِ وَحُرَّاسِ السُّجْنِ.

وَمِنَ النَّتَائِجِ الْأَوْبِيَّةِ لِهَذِهِ الْوَحْشَةِ تَنْمِيَّةُ مَقْدَرَةِ السُّجْنِ عَلَى التَّفْكِيرِ بِحَيْثُ يَتَوَصَّلُ إِلَى طَاقَةٍ مِنْ جَمْعِ أَفْكَارِهِ تَفُوقُ بِكَثِيرٍ مُسْتَوَاهُ الْفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ.

وَلَمَّا كَانَتْ أَفْكَارُ السُّجْنِ تَدُورُ دَائِمًا حَوْلَ عَدَدٍ مَحْصُورٍ مِنْ

المواضيع المزعجة كمسؤوليته الشخصية، وظلم المجتمع، فلا بد أن يؤدي هذا التفكير إلى حرمان السجين من راحة النوم. أما النتائج المشتركة للوحشة وكثرة التفكير وقلة النوم عند السجناء فتختلف خطورتها باختلاف مناعة كل سجين وهي التشاؤم والقلق وانعدام روح النكته واللامبالاة.

(٢) لوعة السجين من الحرمان والهجران

من رُج في السجن حُرِمَ فجأةً من كل سبل تدويق الحياة بحيث يكون قد أرغم على التخلي عن حُرِّيَّته وعاداته ومُجتمعه وباب رزقه.

لذا يُضحي السجين بين ليلة وضحاها مُجرِّداً حتى من شخصيته وعرضة للعوز المطلق: فهو ليس بعاجز عن سد حاجاته فحسب، بل وحتى عن الاستغاثة بالمخلصين الذين كانوا يمدونه بالمساعدة أيام الحرية. عندئذ يستيقظ السجين ويعي أن تأمين حاجاته الأولية هو السبيل الوحيد للحفاظ على ما تبقى عنده من مظاهر الإنسانية. وعليه يلجأ إلى شتى الوسائل لتوفير ما كلفه ومنامته وملبسه وموونة سجائره، سواء أكان بواسطة المال والنفوذ أم بالعمل والاستخدام، وحتى بالاستعطاء والمتاجرة بنفسه.

يتردد السجين في الاعتماد على ذويه وأقاربه من أجل مده بالمال ذلك أن مثل هذا الحل يجعل من المصيبة مصيبتين بحيث يصبح معيل العائلة عالةً عليها.

وقد يتوجه بمطالبه هذه إلى أقطاب النفوذ كرجال السياسة

ورؤساء الأحزاب - خاصة إذا اتصفت جريمتُهُ بدوافعٍ سياسيَّة، وقد يلجأ إلى عصابات الإجرام إذا كان من كبار المجرمين الذين يُبشَّرون بمُسْتَقْبَلٍ باهرٍ في مضمارِ الشرِّ. وفي كلِّتي الحالتين يُعادُ اعتبارُ السَّجينِ تجاهَ نفسه وزملائهِ من حيثِ المعيشة والكرامة والنُّفوذ.

ولكنَّ أكثرَ السُّجناءِ يشكونَ ألمَ هجرهِم من قِبَلِ مُجْتَمَعِهِمْ ولا يجدونَ من يعتمدونَ عليه لتأمينِ عيشٍ لائق. ومن هؤلاء عدوٌّ ضئيلٌ يعتمدُ العملَ كحلًّا لسدِّ حاجاتِهِ وذلكَ إما في مصنعِ السُّجنِ حيثُ يُمكنُهُ مُزاولةُ بعضِ الصَّناعاتِ كالنجارة والحِداثة، وإما في عُرفِ الاعتقالِ حيثُ يتسنى لَهُمُ القيامُ بأشغالٍ يدويَّةٍ كالطَّيريزِ بِحبوبِ الخرز، ومنهُمُ أخيراً من يبدُلُ قُصارَى جُهدِهِ للتطوُّعِ في خدمةِ السُّجناءِ الأقوياءِ والميسورينَ والعيشِ على حسابِهِم. أمَّا باقي المَخاديلِ فيَقْبَلونَ بالأمرِ الواقعِ ويُقاسونَ ألمَ الحرمانِ أو يتنازلونَ عن كرامتِهِم ويلجأونَ إلى التَّسوُّلِ والاستعطافِ. ناهيكَ عن أن العوزَ واليأسَ والرَّغبةَ في رَفَعِ مُستوى المعيشةِ تنتهي بِبعضِ السُّجناءِ، وخاصةً الأحداثِ مِنْهُم، إلى المُتاجرةِ بأجسادِهِم.

(٣) انحلالُ عناصرِ شَخِصِيَّةِ السَّجينِ

تَتَمَيَّزُ شَخِصِيَّةُ السَّجينِ بِفُقدانِ الانسِجامِ مَعَ المُجْتَمَعِ الَّذِي بَدَّهَ وبِالتَّنَاقُضِ الدَّاخِلِيِّ بَيْنَ الدَّوافِعِ الأوَّلِيَّةِ التي تُسَيِّرُهُ: فَهُوَ فِي صِراعٍ مُسْتَمِرٍّ بَيْنَ «الخَيْرِ» و«الشرِّ»، الواقعيَّةِ والنظريَّةِ، وَبَيْنَ الشَّجَاعَةِ والخَوْفِ.

«الخَيْرُ» فِي عُرفِ السَّجينِ يَنْحَصِرُ فِي تَحْقِيقِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ

الأساسية المتجسدة في المرأة والخمرة والمال... والتي يُضرم نارها حرمان السجين منها بنوع خاص.

و«الشَّرُّ» في نظره كامنٌ في جميع العوامل والأشخاص التي تعترض إشباع أهوائه، وقد يتجسدُ عندهُ في أقرب الناسِ لديه كوالديه وعشيقته وفي ممثلي السلطة كشيخ القاضي، وحارس السجن، بل وفي أيِّ امرئٍ مُتمتعٍ بحُرِّيَّته.

ولما كان السجين قليل الشجاعة والشهامة، وعديم التربية والثقافة، فلا بُدَّ أن يلجأ في سعيه المتواصل إلى تحقيق أهدافه هذه إلى وسائل أولية واختبارية تتعارض كلُّ التعارض مع الوسائل المعمول بها في المجتمع الذي كان يعيش فيه والذي يطالهُ ويُقيِّدُهُ داخل السجن أكثر من خارجه.

لذا يُمسي السجين ضحية شهوائه وضحية كابوس المجتمع: فمن جهة يصعبُ عليه تبني مبادئ المجتمع، ومن جهة أخرى يستحيلُ عليه تقويضها.

وتنعكسُ هذه الازدواجية في تفكير السجين ونظرتِه إلى الناس وتحليله للأحداث.

فهو واقعيٌّ إلى أقصى حدود الواقعية في حكمه على بعض الناس وبعض نواحي الحياة التي اختبرها عن كثب: فهو مثلاً على بيّنة أكيدة من نتائج البطالة واليأس والغضب وميزات المحتال والسكرير والشَّرير.

ولكنه يُنقلِبُ إلى باحثٍ نظريٍّ ومُحابٍ عندما يُقدِّرُ الأشخاص ونواحي الحياة التي لها علاقة ما باعتقاله. فهو يبالغ في قيمة الأشياء التي حرم منها ويُنددُ بالأشخاص والقيم التي كان لها صلة ما بأسره. فيُضحى عنده الرغيف أهمُّ شأنًا من حُرمة ملكية الغير، وإشباع

شَهْوَتِهِ الْجَسَدِيَّةِ أَكْبَرَ وَزْنَا مِنَ الْحِفَاظِ عَلَى طَهَارَةِ السُّجْنَاءِ الْأَحْدَاثِ،
وَشَتْمُ كِبَارِ الْمَسْؤُولِينَ حَقًّا مُكْتَسَبًا لَهُ بِمُجَرَّدِ مُمَارَسَةِ هَؤُلَاءِ السُّلْطَةِ
الْفَعْلِيَّةِ.

وَيَنْتُجُ عَنْ هَذِهِ الْمُغَالَطَاتِ تَنَاقُضَاتٌ جَسِيمَةٌ فِي بَرَاهِينِ السَّجِينِ،
وَأَنْقِلَابٌ فِي مَقَائِيسِ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ. وَمِمَّا يَزِيدُ فِي قَلَّةِ
أَنْسِجَامِهِ مَعَ نَفْسِهِ تَأَرْجُحُهُ الْمُسْتَمِرُّ بَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْخَوْفِ.

يَسْتَمِدُّ السَّجِينُ شَجَاعَتَهُ مِنْ حَسَاسِيَّتِهِ الْمُفْرِطَةِ وَعَدَمِ شُعُورِهِ
بِالْمَسْؤُولِيَّةِ وَخَاصَّةً مِنْ أَنْجِدَارِهِ إِلَى أَسْفَلِ دَرَجَاتِ الْأَنْحِطَاطِ الْبَشَرِيِّ
لِمُجَرَّدِ دُخُولِهِ السُّجْنِ. وَتَدْفَعُ هَذِهِ الْعَوَامِلُ بِالسَّجِينِ إِلَى اقْتِرَافِ
أَقْبَحِ الْأَعْمَالِ دُونَ مَا تَرَدَّدُ أَوْ حَجَلَ.

إِلَّا أَنَّ الْخَوْفَ يَسْتَمْلِكُهُ بِصُورَةٍ فُجَائِيَّةٍ خِلَالَ فِتْرَاتٍ وَحَشْتِهِ وَتَحْتَ
تَأْثِيرِ أَفْكَارِهِ الْمُظْلِمَةِ وَاعْتِقَادِهِ بِالْقَضَاءِ الْمَحْتَمِ وَالْخُرَافَاتِ الْبَالِيَةِ.
وَهَذَا التَّقَلُّبُ بَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْخَوْفِ يَحُولُ دُونَ إِتْمَامِ السَّجِينِ الْأَعْمَالَ
الَّتِي يَكُونُ قَدْ بَاشَرَ بِتَنْفِيذِهَا وَيُكْرَسُ بِالتَّالِيِ فَقْدَانَهُ رُوحَ الْمُواظَبَةِ.

كَمَا وَيَنْتُجُ عَنْ كَافَّةِ هَذِهِ الْأَنْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ الْمُتَوَاصِلَةِ وَالْمُتَفَاعِلَةِ
فُقْدَانُ السَّجِينِ السَّيْطَرَةَ عَلَى نَفْسِهِ إِلَى حَدِّ يُضْحِي مَعَهُ أَلْعُوبَةَ
هُوسِهِ وَاضْطِرَابِهِ الْمُفْرِطَيْنِ. وَقَدْ يَتَجَاوَبُ الصَّرَاعُ النَّفْسَانِيُّ الَّذِي
يَنْتَابُ السَّجِينِ مَعَ الصَّرَاعِ الْقَائِمِ دَاخِلَ السُّجْنِ بَيْنَ قُوَى الْفَسَادِ
وَقُوَى الْإِصْلَاحِ ذَلِكَ أَنَّ لِّلْسُّجْنِ بَعْضَ الْفَوَائِدِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ.

يَنْضَاءُ فِي الْأَصْلِ

ثانياً: منافع السّجنِ ومساوئِهِ

لَعَلَّ نَفْسَ الْعَنَاصِرِ الَّتِي تُكُونُ فَوَائِدَ السَّجْنِ هِيَ عَيْنُهَا تِلْكَ الَّتِي تُؤَلَّفُ مَسَاوئُهُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى نَظَرَةِ كُلِّ سَاجِنٍ إِلَيْهَا.

(أ) منافعُ السّجنِ

السّجنُ عِبْرَةٌ لِلسَّاجِنِ الْمُسْتَهْتِرِ، وَخِبْرَةٌ وَتَرَوٌ لِلْمُتَيْقِظِ، وَاخْتِبَارٌ لِلْحُرِّيَّةِ لِكِلَيْهِمَا.

(١) السّجنُ عِبْرَةٌ

السّجنُ عِبْرَةٌ لِكُلِّ مُسْتَهْتِرٍ بِجِدِّيَّةِ الْقَانُونِ وَهَيْبَةِ السُّلْطَةِ.

إِنَّهُ لَثَقِيلُ الْعِبَاءِ حَتَّى عَلَى الْمُتَشَرِّدِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ بِمُسْتَوَى يَفُوقُ مُسْتَوَاهُ فِي ظِلَالِ الْحُرِّيَّةِ. لِذَا أَخْطَأَ مَنْ قَالَ بِاسْمِ فِتْنَةٍ مِنَ الْمُعْتَقَلِينَ بِتَفْضِيلِ حَيَاةِ السَّجْنِ عَلَى حَيَاةِ الْحُرِّيَّةِ. فَالسّجنُ يُشَكِّلُ عِقَابًا جَدِيدًا لِمُخْتَلَفِ فِئَاتِ السُّجَنَاءِ.

وَقَدْ يُؤَدِّي أحيانًا إِلَى إِصْلَاحِ ذَاكَ السَّاجِنِ الَّذِي يَتِمَكَّنُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ مُزَاوَلَةِ عَمَلٍ شَرِيفٍ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ بَيْتِهِ الْفَاسِدَةِ.

(٢) السُّجُنُ خِبْرَةٌ

أما أقصى منافع السُّجُنِ فلا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا إِلَّا السَّجِينُ الْمُتَيَقِّظُ العَاقِلُ وَهِيَ اكْتِسَابُ خِبْرَةِ الحَيَاةِ وَبَعْضِ الحِكْمَةِ.

لا نُبَالِغُ إِذَا قُلْنَا إِنَّ السُّجُنَ مَدْرَسَةٌ للحَيَاةِ عَمَلِيَّةٌ إِلَى أَقْصَى الحُدُودِ. وَهُوَ يَكْشِفُ لِرُؤُودِهِ عَنِ النَّتَائِجِ السَّيِّئَةِ لِكَافَّةِ أَعْمَالِ ومشاريعِ البَشَرِ غَيْرِ المَشْرُوعَةِ كَمَا وَيُشَكِّلُ مَجَالًا غَنِيًّا لِدرَسِ واخْتِبَارِ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ فِي صِرَاعِهَا الأَزَلِيِّ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ.

وَقَدْ يَكْتَسِبُ السَّجِينُ المُمَعِنُ النَّظَرَ فِي مَشَاكِلِ رِفَاقِهِ مِيزَاتٍ عَدِيدَةً أَهْمُهَا رِبَاطَةُ الجَاشِ وَالتَّرْوِي وَرُوحُ التَّوَاضِعِ. وَلا يُسْتَبَعَدُ أَنْ يَنْقَلِبَ هَذَا السَّجِينُ إِلَى عَاقِلٍ حَكِيمٍ.

إِذَا كَانَتْ أَهْمِيَّةُ فَوَائِدِ السُّجُنِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ رِصَانَةِ كُلِّ سَاجِنٍ فَهَنَّاكَ فَوَائِدُ تُشْمَلُ بِنَفْعِهَا كَافَّةَ المُعْتَقِلِينَ وَمِنْ بَيْنِهَا اخْتِبَارُ الحُرِّيَّةِ وَالصَّدَاقَاتِ.

(٣) السُّجُنُ اخْتِبَارٌ للحُرِّيَّةِ وَمِحْكٌ لِلصَّدَاقَاتِ

مَنْ دَخَلَ السُّجُنَ وَعَى وَلا شَكَ قِيمَةَ الحُرِّيَّةِ الَّتِي أُزْغِمَ عَلَى التَّخَلِّي عَنْهَا أَمَامَ القُضْبَانِ الحَدِيدِيَّةِ، وَرُبَّمَا أَدْرَكَ أَيضًا أَنَّ سُوءَ اسْتِعْمَالِهِ لِحُرِّيَّتِهِ هُوَ الَّذِي أَدَّى بِالفِعْلِ إِلَى حِرْمَانِهِ مِنْهَا.

وَيَكْتَشِفُ السَّجِينُ بِأَكْثَرِ سُهُولَةٍ مَدَى إِخْلَاصِ كُلِّ مَنْ يَدَّعِي صَدَاقَتَهُ، وَغَالِبًا مَا يُسْفِرُ هَذَا الاخْتِبَارُ عَنْ مُفَاجَأَتِ مُؤَلِمَةٍ.

وَلَكِنْ أَسْوَأُ اخْتِبَارَاتِ السُّجُنِ هِيَ الَّتِي نَسْتَطِيعُ أَنْ نُورِدَهَا فِي بَابِ السَّيِّئَاتِ.

(ب) مساوئ السّجن

مَسَاوئُ السَّجْنِ النَّاتِئَةُ هِيَ الْبَطَالَةُ وَالْاِخْتِلَاطُ وَالْانْحِرَافَاتُ الْخُلْفِيَّةُ.

(١) الْبَطَالَةُ

يُوجَدُ فِي السَّجْنِ مَوْضُوعٌ اخْتِبَارِنَا مَصْنَعًا يُوقَّرُ أَسْبَابَ الْعَمَلِ لِخَمْسَةِ عَشَرَ سَجِينًا مِنْ أَصْلِ ثَمَانِمَائَةٍ،^(١) أَيُّ أَنْ نِسْبَةَ ثَمَانِيَّةٍ^(٢) وَتَسْعِينَ بِالْمَائَةِ^(٣) مِنَ السُّجَنَاءِ عَاطِلُونَ عَنِ الْعَمَلِ.

هَذَا مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الرُّغْبَةَ فِي الْعَمَلِ أَكِيدَةٌ لَدَى عَدَدٍ وَاثِرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ كَمَا هُوَ ثَابِتٌ مِنْ قِيَامِهِمْ بَعْدَ أَشْغَالٍ يَدَوِيَّةٍ دَاخِلٍ عُرْفِ الْاِعْتِقَالِ نَفْسِهَا لِأَنَّ الْمَصْنَعَ لَا يَسْتَوَعِبُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامِلًا. نَاهِيكَ عَنِ أَنَّ الْعَمَلَ فِي الْمَصْنَعِ يُشَكِّلُ امْتِيَازًا صَعَبَ الْمَنَالِ رَفِيْعًا.

وَهَكَذَا تَكُونُ الْأَكْثَرِيَّةُ السَّاحِقَةُ مِنَ السُّجَنَاءِ عُرْضَةً لِمَسَاوئِ الْبَطَالَةِ الْحَائِلَةِ دُونَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مَشَاكِلِهِمُ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْمُعْذِيَّةِ أَفْكَارِهِمُ الْمُظْلِمَةَ، وَالِدَّاعِيَةَ إِلَى تَسْرُبِ الْيَأْسِ وَالْخُمُولِ إِلَى نُفُوسِهِمْ. فَإِذَا بِهِمْ يَتَأَكَّدُونَ مِنْ عَدَمِ نَفْعِهِمْ وَكَوْنِهِمْ عَالَةً عَلَى الْغَيْرِ، وَبِالنَّتِيْجَةِ فَالْبَطَالَةُ تُمَهِّدُ السَّبِيلَ لِإِفْسَادِ السُّجَنَاءِ عَنِ طَرِيقِ الْاِخْتِلَاطِ.

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ.

(٢) فِي الْأَصْلِ، «ثَمَانِيَّةٌ» وَالْأَصُوبُ مَا أُثْبِتْنَاهُ.

(٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ.

(٢) الاختلاط

تَجْمَعُ عُرْفُ السُّجْنِ مَوْضِعَ بَحْثِنَا بَيْنَ السَّجِينِ الْمَوْقُوفِ، وَالسَّجِينِ الْمَحْكُومِ، وَالْمُجْرِمِ الْمُكْرِرِ، وَالْمُجْرِمِ الْحَدِيثِ، وَالظَّنِينِ بِجُنْحَةٍ، وَالْمُتَّهَمِ بِجِنَايَةٍ، وَالْمُجْرِمِ السِّيَاسِيِّ، وَالْمُجْرِمِ الْعَادِيِّ. وَمَعَ أَنَّ لِلْسُّجْنَاءِ الْأَحْدَاثِ عُرْفَتَيْنِ خَاصَّتَيْنِ بِهِمْ، فَهُنَالِكَ مُنَاسَبَاتٌ عَدِيدَةٌ تُمَكِّنُ السُّجْنَاءَ الْقَاصِرِينَ مِنَ الْجَمَاعِ بِالْسُّجْنَاءِ الْبَالِغِينَ.

وَلَمَّا كَانَ مَقْدَارُ فَسَادِ أَخْلَاقِ السُّجْنَاءِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْفِئَاتِ الَّتِي يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهَا، فَلَا عَجَبَ أَنْ يُؤَدِّيَ اخْتِلَاطُ جَمِيعِ الْفِئَاتِ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ إِلَى تَفْشِي عَدْوَى الرَّذِيلَةِ. ذَلِكَ أَنَّهُ مَهْمَا بَلَغَتْ رَذِيلَةُ الْمَرْءِ خَارِجَ السُّجْنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَطَّلِعَ دَاخِلَهُ عَلَى جَرَائِمَ جَدِيدَةٍ أَكْثَرَ بَشَاعَةً وَأَكْثَرَ عَدَدًا مِنَ الَّتِي تَشْغُلُ ضَمِيرَهُ خَارِجَ السُّجْنِ.

وَإِذَا كَانَ السَّجِينُ الْجَدِيدُ مِنْ هُوَاةِ الْإِجْرَامِ، تَمَكَّنَ بِكُلِّ سُهولةٍ مِنَ اخْتِبَارِ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْجَرَائِمِ وَكَيْفِيَّةِ تَذْيِيرِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ وَتَمَكَّنَ أَيْضًا مِنَ التَّعَرُّفِ إِلَى كِبَارِ الْمُجْرِمِينَ وَمِنْ تَأْسِيسِ أُمَّتِنِ وَأَخْطَرَ عِصَابَاتِ السَّلْبِ وَالْقَتْلِ.

وَمِنْ نَتَائِجِ الْاِخْتِلَاطِ تَأْثِيرُهُ الْأَكِيدُ فِي تَنْمِيَةِ وَنَشْرِ الْأَنْحِرَافَاتِ بَيْنَ السُّجْنَاءِ.

(٣) الانحرافات الخلقية

يَرْتَكِبُ السُّجْنَاءُ دَاخِلَ السُّجْنِ عِدَّةَ قَبَاحَاتٍ كَالْإِذْمَانِ عَلَى الْمُخَدَّرَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ وَتَعَاطِي الْمَيْسِرِ وَمُطَالَعَةِ الْمَطْبُوعَاتِ الْخَلَاعِيَّةِ وَحَتَّى اللَّعِبِ فِي سَبَاقِ الْخَيْلِ.

وَلِلْسُّجْنَاءِ مَقْدَرَةٌ فَائِقَةٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْمُخَدَّرَاتِ وَخَاصَّةً

«حَشِيشَةُ الْكَيْفِ» وَمَادَّةُ «الْهَرَوِيِّينَ» الَّتِي تَصِلُهُمْ غَالِبًا مَدْفُونَةٌ فِي كَمِّيَّاتِ الطَّعَامِ الْوَارِدِ مِنْ خَارِجِ السَّجْنِ.

أَمَّا كَيْفِيَّةُ تَعَاطِي هَذِهِ الْمُخَدَّرَاتِ فَتَخْتَلِفُ وَمَقْدِرَةُ الْمُتَزَعِّمِينَ فِي كُلِّ عُرْفَةٍ، إِمَّا أَنْ تُدَوَّرَ نَارِجِيلَةُ الْكَيْفِ فِي الْمَطْبَخِ فَيَنْتَقِلَ إِلَيْهَا هَوَاتُهَا، أَوْ أَنْ يَظَلَّ هَؤُلَاءِ جَالِسِينَ عَلَى وَسَادَاتِهِمْ فِي وَسَطِ الْعُرْفَةِ فَيَطُوفَ عَلَيْهِمْ «طَيَّارُ الْكَيْفِ» بَيْنَمَا، أَمَامَ شِرَاقَةِ الْبَابِ، «بَصَاصٌ» يَتَرَقَّبُ كُلُّ طَائِرٍ؛ وَقَدْ تَتَكَرَّرُ هَذِهِ الْحَفَلَاتُ فِي بَعْضِ الْعُرُفِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ.

وَلَكِنَّ أْبَشَعَ مَسَاوِي السَّجْنِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الْإِنْجِرَافَاتُ الْجِنْسِيَّةُ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، الْعَدَدُ الْأَكْبَرُ مِنَ السُّجَنَاءِ الْمَحْكُومِينَ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ.

وَلَا عَجَبَ فِي الْأَمْرِ مَا دَامَ السَّجِينُ قَدْ سُلِّخَ عَنَّا بَيْتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ، وَحَرَمَ حَقَّ التَّصَرُّفِ بِنَفْسِهِ، وَطُرِحَ فِي بَيْتَةٍ تَمَيَّزَتْ بِالْفُجُورِ.

أَضْفُ إِلَى هَذَا التَّنَوُّعِ فِي الْجِرْمَانِ نَقْصًا فِي الْغِذَاءِ وَبَطَالَةً وَيَأْسًا وَتَحْرِيسًا مُسْتَمِرًّا عَلَى اقْتِرَافِ الْمُنْكَرَاتِ.

وَتَذَكَّرُ أَحْيَرًا أَنَّ السَّجِينَ مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ كَكُلِّ رَجُلٍ، وَلَكِنَّهُ بِخِلَافِ سَائِرِ الْبَشَرِ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ إِرْضَاءُ شَهْوَتِهِ هَذِهِ بِصُورَةٍ طَبِيعِيَّةٍ.

لِذَا تَرَى الْلُوطَاطَ مُتَحَكِّمًا بِالسُّجَنَاءِ الْكِبَارِ مِنْهُمْ وَالصَّغَارِ، وَمَنْ نَجَا مِنْ حِبَالِهِ وَقَعَ فِي شِبَاكِ الْعَادَةِ السَّرِيَّةِ.

يَتَعَاطَى السُّجَنَاءُ الْلُوطَاطَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ حَسَبَ التَّجَانُّسِ الْجِنْسِيِّ الْمُتَبَادَلِ لَيْسَ فَقَطْ بَيْنَ أَفْرَادِ كُلِّ عُرْفَةٍ، بَلْ وَبَيْنَ الْعَدِيدِ مِنَ السُّجَنَاءِ الْمَوْزَعِينَ فِي كَافَّةِ أَقْسَامِ السَّجْنِ.

ولا يكتفي بعض السجّناء بتعاطي اللواط الواحد مع الآخر، بل يُحيون حفلات فُجُورٍ جماعيةً يُشركون فيها السجّناء الأحداث.

يتم الاتفاق مع الأحداث بواسطة عملاء أخصائيين يتعهدون مقابل بدلٍ مُعيّنٍ بجمع القاصر الماجن، المُلقب بالـ«وزوز» أو الـ«لقون»، بالزبائن البالغين في مكان يُعرف بالـ«بخشة».

ويبذل بعض السجّناء قصارى جهدهم بغيّة تقريب عمليّة اللواط من المضاجعة الطبيعيّة بين الرّجل والمرأة، وعليه يصرّون على مُجماعة الـ«لقون» ونصب أعينهم أغرى رسوم الحوريّات العاريات.

وإذا ضاق الحرمان بالسجّناء هُواة النساء لجأوا إلى كافة الوسائل الجهنميّة للحصول على المرأة، ومنها، حسب ادّعائهم، إقناع إدارة السجّن بحاجتهم إلى إجراء بعض الفحوصات الطبيّة في المُستوصفات الحكوميّة ممّا يُمكنهم من مُغادرة السجّن ورشوة الحراس خلال الطّريق، الأمر الذي يُمكنهم من تحقيق رغبتهم الجنسيّة.

ولا شك في أنّ هذا الخروج عن المقاييس الطبيعيّة في تعاطي السجّناء الحياة الجنسيّة مضاعفًا إلى كلّ ما يُقاسيه هؤلاء من وحشة وحرمانٍ ويأسٍ ينتهي بهم إلى النّوبات العصبيّة والخمول واختلال الشّعور فتقوّض إنسانيّتهم بدلًا من أن تصطّح.

ثالثاً: إصلاح السجون

إذا قارننا بين واقع السجن في بلدنا وبين النصوص القانونية المرعية الإجراء في لبنان المختصة بتنظيم السجون، أو بين الواقع وبين مبادئ علم إصلاح المساجين (La science pénitentiaire) لاقتنعنا بضرورة إدخال بعض الإصلاحات إلى سجوننا. ومقومات هذا الإصلاح بعرفنا هي تأمين كافة الحاجات الأولية للسجين، وتحقيق المساواة والتصنيف، وتوفير أسباب العمل والتعليم للجميع.

(أ) تأمين كافة الحاجات الأولية للسجين

الحاجات الأولية التي تؤمنها إدارة السجون عندنا هي المأكل والتطبيب والنظام.

فبالرغم من التحسينات الملموسة لا يزال طعام السجناء يفتقر إلى المادة الغذائية. فحبذا لو سهرت وزارة الداخلية على تنفيذ المادة ٧٧ من المرسوم رقم ١٤٣١٠ تاريخ ١١ شباط ١٩٤٩ التي تحدّد مقدار الجارية اليومية لكل سجين فتخصه بعدة مواد غذائية منها مئة وستون غراماً من «الخضرة الصافية» كالبندورة «الخضراء»، وخمسة غرامات من «سمن الغنم الخالي من الغش»، ومئتا غرام

في الأسبوعِ مِنْ «لَحْمِ الْعَنَمِ... بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ اللَّحْمُ لَحْمَ خَرُوفٍ
لَا لَحْمَ نِجَاجٍ»!

والواقِعُ أَنَّ السُّجَنَاءَ لَا يَذُوقُونَ طَعْمَ الخُضَارِ أَوْ يَسْتَسَيِّغُونَ طَعْمَ
اللَّحْمِ لِاسْتِحَالَةِ مَضْغِهِ وَهَضْمِهِ.

وَمِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ تَنْفِيذِ هَذَا النَّصِّ الْقَانُونِيِّ اعْتِمَادُ الْمَرْسُومِ
نَفْسِهِ فِكْرَةً تَلْزِيمِ أَكْلِ السُّجَنَاءِ إِلَى مُنْتَفِعِينَ بَدَلًا مِنْ تَأْمِينِ إِدَارَةِ
السُّجْنِ نَفْسَهَا تَحْضِيرَ الطَّعَامِ بِالتَّعَاوُنِ مَعَ السُّجَنَاءِ عَيْنِهِمْ كَمَا هُوَ
عَلَيْهِ الْعُرْفُ فِي سُجُونِنَا بِخُصُوصِ بَعْضِ حَاجَاتِ السُّجَنَاءِ الأُخْرَى
كَالْخِيَاطَةِ وَالْأَحْذِيَّةِ.

وَفِي نِطَاقِ تَأْمِينِ الأَمْنِ دَاخِلِ السُّجْنِ يَتَوَجَّبُ عَلَى الإِدَارَةِ أَنْ تُعَزِّزَ
جُهُودَهَا وَتُجَرِّدَ السُّجَنَاءَ مِنْ جَمِيعِ وَسَائِلِ الإِيذَاءِ كَالْقَطَاعَاتِ
وَالشُّفْرِ وَالْأَوَانِي الْحَدِيدِيَّةِ وَالزُّجَاجِيَّةِ. كَمَا وَعَلَيْهَا أَنْ تَزِيدَ فِعَالِيَّةَ
المُرَاقَبَةِ عَلَى العُرْفِ بَعْدَ إِفْقَالِهَا وَأَنْ تَتَحَسَّبَ لِرُؤْسَاءِ هَذِهِ العُرْفِ
— وَهُمْ أَيْضًا مِنَ السُّجَنَاءِ — لِئَلَّا يُنْفَذُوا مَشِيئَتَهُمْ بِصُورَةٍ تَحْكِمِيَّةٍ
عَلَى سَائِرِ سُجَنَاءِ عُرْفَتِهِمْ. فَهُمْ لَا يَأْبَهُونَ فِي تَحْقِيرِهِمْ وَشَتْمِهِمْ
وَضَرْبِهِمْ حَسَبَ مَفْهُومِهِمُ الخَاصِّ لِلسَّيْطَرَةِ وَ«التَّادِيْبِ» وَقَدْ يَبْلُغُ
هَوَسُ السَّيْطَرَةِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ كَالْإِزَامِ بَعْضِ السُّجَنَاءِ
بِالرَّقِصِ عِرَاءَهُ أَمَامَ رِفَاقِهِمْ إِلَى أَنْ تَتَلَشَّى قُؤَاهُمْ فَيَسْقُطُونَ أَرْضًا
مِنَ التَّعَبِ.

وَعَلَى الإِدَارَةِ أَنْ تَأْخُذَ عَلَى عَانِقِهَا حَاجَاتِ أَوْلِيَّةِ أُخْرَى لِلسُّجَنَاءِ
كَتَوْفِيرِ وَسَائِلِ المَنَامَةِ وَالمَلْبَسِ وَالصَّرُورِيِّ مِنَ التَّسْلِيَّةِ.

فَمَا بَالُ وَزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ تَتَجَاهَلُ المَوَادَّ ٨٢ إِلَى ٨٥ مِنَ الْمَرْسُومِ
المَذْكُورِ الَّتِي تُلْزِمُهَا بِمَهَامِّ إِبَاسِ السُّجَنَاءِ المَحْكُومِينَ بِالأشْغَالِ
الشَّاقَّةِ، وَالَّتِي تُحَدِّدُ لِكُلِّ مِنْهُمْ «لِبَاسِينَ وَقَمِيصِينَ وَسِرْوَالًا وَسُتْرَةً

وَحِذَاءً وَقُبْعَةً وَجَوْرَبَيْنِ صُوفِيَيْنِ وَمِعْطَفًا... عَلَى أَنْ تَكُونَ الْمَلَابِسُ
مِنَ الْجَوْخِ أَوْ مِنَ الْكِتَانِ بِحَسَبِ الْفَصْلِ!»

فَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّ السُّجْنَاءَ يَبْدُونَ شِبْهَ عُرَاةٍ، تَبَيَّنَّا مَدَى مَسْئُولِيَّةِ
السُّلْطَاتِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ.

كَذَلِكَ تَنَاسَتْ وَزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ مُوجِبَ تَأْمِينِ مَنَامَةِ السُّجْنَاءِ الْمُلقَى
عَلَى عَاتِقِهَا بِحُكْمِ المَادَّةِ ٨٦ مِنَ المَرْسُومِ المَذْكُورِ وَالتِّي تَمْنَحُ
كُلَّ سَجِينٍ فِرَاشًا «مِنَ قَشٍّ وَمِخْدَةً وَشَرَشَفًا وَغِطَاءً عَلَى أَنْ يُغْسَلَ
الشَّرْشَفُ كُلُّ شَهْرٍ فِي الشِّتَاءِ وَكُلَّ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا فِي الصَّيْفِ...
وَيُطَهَّرَ القَشُّ كُلُّ شَهْرٍ فِي إِنَاءٍ لِلتَّبْخِيرِ»!

مَعَ العِلْمِ أَنَّ أَقْدَرَ حَاجِيَّاتِ السَّجِينِ عَلَى الإِطْلَاقِ البَطَانِيَّتَانِ
اللتَّانِ تُؤَلَّفَانِ فِرَاشَهُ وَتَبْقِيَانِ دُونَ تَنْظِيفِ خِلَالَ مُدَّةِ الاعْتِقَالِ
مَهْمَا طَالَتْ.

يُضَافُ إِلَى هَذَا التَّقْصِيرِ فِي التَّنْفِيدِ نَقْصٌ فِي التَّشْرِيحِ لِأَنَّ الأَحْكَامَ
القَانُونِيَّةَ المُنْتَظَمَةَ لِّلْسُجُونِ قَدْ تَجَاهَلَتْ تَمَامًا أَخْطَرَ مُعْضَلَاتِ
السُّجْنِ أَلَا وَهِيَ إِيجَادُ الوَسَائِلِ العَمَلِيَّةِ الكَفِيلَةِ بِمُسَاعَدَةِ السُّجْنَاءِ
عَلَى المَحَافَظَةِ عَلَى اتِّزَانِهِمُ الجِنْسِيِّ.

كُلُّ مَا ارْتَبَتِ الإِدَارَةُ حَتَّى الآنَ لِحَلِّ هَذِهِ المُشْكِلةِ الشَّائِكَةِ هُوَ
إِدْخَالُ بَعْضِ المَوَادِّ المُسَكَّنَةِ إِلَى الطَّعَامِ المُقَدَّمِ لِلْمَسَاجِينِ بُغْيَةً
إِحْمَادِ شَهْوَتِهِمُ الجَسَدِيَّةِ. وَلَكِنَّ هَذَا الحَلَّ غَيْرَ الطَّبِيعِيِّ بَقِيَ دُونَ
جَدْوَى بِسَبَبِ قِلَّةِ فَعَالِيَّتِهِ، وَرَفْضِ السُّجْنَاءِ تَنَاوُلِ طَعَامِ السُّجْنِ.

وَهُنَاكَ حُلُولٌ أُخْرَى مِنْ شَأْنِهَا مُسَاعَدَةُ السُّجْنَاءِ عَلَى تَلَاوِي
الانْحِرَافَاتِ الجِنْسِيَّةِ كِتُوفِيرِ أسبابِ العَمَلِ وَالرِّيَاضَةِ وَالسَّلْوَى
لِلْمَسَاجِينِ، وَخَاصَّةً فَضْلَهُمْ بَعْضُهُمْ عَن بَعْضٍ فِي اللَّيْلِ. مَعَ العِلْمِ
أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الإِجْرَاءَاتِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُشَكَّلَ حَلًّا جَدْرِيًّا.

بِقْيِ إِذَا عَلَى الْإِدَارَةِ أَنْ تُفَكَّرَ مَلِيًّا بِالنَّاتِجِ الْخَطِيرَةِ النَّاجِمَةِ عَنْ
إِهْمَالِ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَأَنْ تَفْقَهَ أَنَّ الْقَانُونَ لَمْ يَحْرِمِ
السَّجِينَ إِلَّا مِنْ حُرِّيَّتِهِ دُونَ أَيِّ مَسَاسٍ بِطَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ.

وَلِذَا، فَإِنَّا نُقَرُّ عَدَمَ مَشْرُوعِيَّةِ حَرْمَانِ السَّجِينَ مِنْ مُمَارَسَةِ حَيَاةٍ
جِنْسِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ. فَالْقَانُونُ الْبُنَانِيُّ لَمْ يَحْرِمْهُ مِنْهَا بِنَصِّ خَاصٍّ حَسَبَمَا
تَفْتَضِيهِ الْأَصُولُ، كَمَا وَأَنَّ الْمَبَادِيءَ التَّشْرِيعِيَّةَ لَا تَسْمَحُ بِإِقْرَارِ مِثْلِ
هَذِهِ الْقَوَانِينِ لِمَا فِيهَا مِنْ تَنَافٍ وَتَقْوِيضٍ لِأَسْمَى الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

وَبَعْدَ الْبَحْثِ وَالتَّدْقِيقِ، لَا بُدَّ أَنْ تَفْتَنَعَ الْإِدَارَةُ بِوُجُوبِ تَمْكِينِ بَعْضِ
السُّجَنَاءِ مِنْ تَعَاطِي حَيَاةٍ جِنْسِيَّةٍ مُنْتَظَمَةٍ لَا سِيَّمَا الْمُتَزَوِّجِينَ
مِنْهُمْ وَضَمَّنَ شُرُوطٍ وَظُرُوفٍ خَاصَّةٍ يَعُودُ إِلَى الطَّبِيبِ النَّفْسَانِيِّ
تَحْدِيدُهَا.

وَمِنَ الْوُجْهِةِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى الْإِدَارَةِ أَنْ تَتَوَقَّفَ عَنِ اسْتِقْبَالِ الْمَسَاجِينِ
الْأَحْدَاثِ فِي السُّجُونِ الْمُخَصَّصَةِ لِلْبَالِغِينَ وَأَنْ تَنْقَطِعَ عَلَى الْأَقْلِّ عَنْ
إِنَاطَةِ إِدَارَةِ حَقَامَاتِ السُّجُنِ بِهَؤُلَاءِ الْأَحْدَاثِ الَّذِينَ يَتَمَكَّنُونَ تَحْتَ
سِتَارِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ الرَّسْمِيَّةِ مِنْ مُلَاقَاةِ الْبَالِغِينَ وَمُسْجَعِي الْوِطَاطِ.
وَيَتَوَجَّبُ عَلَى الْإِدَارَةِ أَنْ تَمْنَعَ السُّجَنَاءَ الْأَحْدَاثَ مِنَ التَّدْخِينِ أَوْ
تُحَدِّدَ لَهُمْ مِقْدَارَ اسْتِهْلَاكِ الدُّخَانِ وَذَلِكَ لَيْسَ حِفَاظًا عَلَى صِحَّتِهِمْ
فَحَسْبُ، بَلْ خُصُوصًا لِمَنْعِ تَدَاوُلِ عُلْبِ السَّجَائِرِ فِي غَايَاتٍ تَتَنَافَى
وَطَهَارَةَ الْأَحْدَاثِ كَمَا هِيَ الْحَالُ دَاخِلَ سُجُونِنَا.

وَلَعَلَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ هِيَ إِسْنَادُ مَهْمَةِ حَلِّ
الْمَشَاكِلِ الْجِنْسِيَّةِ، طَبِيبِ أَخْصَائِي بِالْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ.

وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ صِيَانَةَ مَا تَبَقَّى مِنْ مَظَاهِرِ إِنْسَانِيَّةِ السَّجِينِ
لَا تَتِمُّ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَبْدَأِي الْمُسَاوَاةِ وَالتَّصْنِيفِ اللَّذِينَ لَمْ يُطَبَّقَا بَعْدُ
فِي سُجُونِنَا.

(ب) المساواة

يَشْكُو ضِعَافُ السُّجَنَاءِ مِنْ فُقْدَانِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ زُمَلَائِهِمْ الْمُتَوَجِّهِينَ وَالْمُحْتَكِرِينَ كَافَّةً الْأَمْتِيَازَاتِ مِنْ تَمَثِيلِهِمْ وَإِدَارَةِ شُؤُونِهِمْ إِلَى مَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا مِنْ سَطْوَةٍ وَحُرِّيَّةٍ فِي التَّنَقُّلِ وَالْمُوَاجَهَةِ.

فَعَلَيْهِ أَصْبَحَ مِنَ الضَّرُورِيِّ تَنْفِيدُ مَبْدَأِ الْمُسَاوَاةِ فِي سُجُونِنَا بِحَيْثُ تَزُولُ جَمِيعُ الْفَوَاقِقِ الَّتِي تَجْعَلُ مِنَ السُّجَنَاءِ طَبَقَاتٍ مُتَبَايِنَةً، فَتُحَارَبُ بِذَلِكَ سَطْوَةُ الْمَالِ وَالنُّفُودِ.

وَمِنَ النَّاحِيَةِ السَّلْبِيَّةِ تُؤَدِّي الْمُسَاوَاةُ إِلَى مَنَعِ السُّجَنَاءِ مِنَ الْإِتْيَانِ بِحَاجَاتِهِمِ الْأَوْلِيَّةِ مِنْ خَارِجِ السُّجْنِ فَلَا يَحِقُّ بَعْدَئِذٍ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ التَّمَيُّزَ عَنْ سِوَاهُ بِمَا كَلِهَ أَوْ مَلْبَسَهُ أَوْ مَنَامَتَهُ أَوْ أَيِّ مِنْ مَظَاهِرِ الرَّفَاهِيَّةِ وَبُخْبُوحَةِ الْعَيْشِ كَالْبَرَادِ وَالسَّخَانَةِ وَالْمِرْوَحَةِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ وَالْمِذْيَاعِ وَحَتَّى جِهَازِ التَّلْفِزِيُونِ. (كذا)^(١)

وَيَتَوَجَّبُ بِالطَّبَعِ عَلَى الْإِدَارَةِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِيجَابِيَّةِ تَأْمِينُ مَا يَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْحَاجَاتِ الْأَوْلِيَّةِ لِجَمِيعِ السُّجَنَاءِ دُونَما تَمَيُّيزٍ وَتَفْضِيلٍ. كَمَا وَيَشْمُلُ حُكْمَ مَبْدَأِ الْمُسَاوَاةِ جَمِيعَ حُقُوقِ السُّجَنَاءِ وَمُوجِبَاتِهِمْ فَلَا يَسْتَفِيدُ إِذْ ذَاكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمَحْسُوبِيَّةِ وَمُرَاعَاةِ الْخَوَاطِرِ.

وَمِنَ النَّتَائِجِ غَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْإِصْلَاحِ أَنَّ الْإِدَارَةَ، بِمَنْعِهَا دُخُولَ حَاجَاتِ السُّجَنَاءِ مِنَ الْخَارِجِ، تَمْنَعُ بِالْوَقْتِ نَفْسَهُ تَسَرُّبَ الْمُحَرَّمَاتِ كَالْأَسْلِحَةِ وَالْمُخَدَّرَاتِ وَالْكَتُبِ الْخَلَاعِيَّةِ وَالْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ إلخ...

هَذَا مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ مُرَاعَاةَ مَبْدَأِ الْمُسَاوَاةِ دَاخِلَ السُّجْنِ يَجِبُ أَلَّا يُؤَدَّى إِلَى دَمَجِ السُّجَنَاءِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى وَلَا إِلَى تَطْبِيقِ نِظَامٍ وَاحِدٍ

(١) كذا في الأصل.

على الجميع، وذلك بسبب أهميّة التّوفيق بين مبدأي المساواة والتّصنيف.

(ج) التّصنيف

التّصنيف هو العمليّة التي تُؤدّي إلى تفسيم السّجناء إلى فئات متعدّدة بحيث يكون أعضاء كلّ فئة متجانسين فيها بينهم^(٢) وساكنين في عرقة مشتركة.

ولعلّ إدارة السّجون عندنا قد تبنت حلاً فريداً من نوعه في تصنيف السّجناء فوزعتهم على العرّف حسب ميولهم السياسيّة فأصحت كافّة عرّف السّجن على الإطلاق كلّاً منها مزيّنة بصورة زعيمها السياسيّ ذات الإطار المضاء بالمصايح الكهربيّة.

أمّا الحلّ العمليّ لمشكلة التّصنيف فيقضي بأنّ تعهد الإدارة بهذا التّقسيم إلى أخصائيّ في علم طبائع الإنسان (Anthropologiste caractérologue) يقوم بتنظيم ملفّ لكلّ سجين يبيّن فيه دأبه وأخلاقه وميوله الأساسيّة ونظرتّه إلى نفسه وإلى الغير. وعلى ضوء هذه الدّراسة النفسيّة يتمكّن هذا الأخصائيّ من تعيين جماعة السّجناء التي يقتضي على كلّ سجين أن يخالطها دون سواها.

ويهدف هذا التّصنيف إلى تأمين تعايش السّجناء بصورة يرضى عنها الجميع، وتلافي مساوي الاختلاط وبالنتيجة إلى إفساح المجال أمام أفراد كلّ فريق للتّمرس فيما بينهم على الحياة الجماعيّة بغيّة إعدادهم لمجابهة المجتمع بشيء من التّفهم والاتّزان.

(٢) كذا في الأصل ولعلّ الأصوب «فيما بينهم».

وهكذا يُعْتَبَرُ تَنْفِيدُ مَبْدَأِ التَّصْنِيفِ كَمَرْحَلَةٍ إِعْدَادِيَّةٍ لِإِدْخَالِ إِصْلَاحَاتِ جَوْهَرِيَّةٍ إِلَى السُّجْنِ كَتَنْظِيمِ الْعَمَلِ وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّوَجِيهِ، ذَلِكَ أَنَّ فَعَالِيَّةَ هَذِهِ التَّحْسِينَاتِ مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى مَدَى الانْسِجَامِ فِي الْجَمَاعَاتِ الْمُصَنَّفَةِ.

(د) الْعَمَلُ

نَصَّتِ الْمَادَّةُ ١١٨ مِنَ الْمَرْسُومِ رَقْمَ ١٤٣١٠ تَارِيخَ ١١ شِبَاطِ ١٩٤٩ عَلَى وُجُوبِ تَرْوِيدِ السُّجُونِ بِمَعَامِلٍ «تُعَدُّ لِأَكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ الْمَسْجُونِينَ يُمَكِّنُ تَشْغِيلَهُ وَتَدْرِيْبَهُ». أَمَّا فِي الْوَاقِعِ فَلَا يَزِيدُ عَدَدُ السُّجَنَاءِ الْعَامِلِينَ فِي مَعَامِلِ السُّجْنِ مَوْضُوعَ بَحْثِنَا عَنْ نِسْبَةِ اثْنَيْنِ فِي الْمِئَةِ مَعَ أَنَّ تَنْظِيمَ عَمَلِ السُّجَنَاءِ مِنْ أَهَمِّ إِصْلَاحَاتِ السُّجُونِ عَلَى الْإِطْلَاقِ نَظْرًا لِفَوَائِدِهِ الْجَمَّةِ الَّتِي تَكَادُ تَحُلُّ جَمِيعَ مَشَاكِلِ السُّجَنَاءِ.

فَالْعَمَلُ يُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الْوَحْشَةِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ خُرُوجِ السَّجِينِ مِنْ نَفْسِيَّتِهِ الْيَابِسَةِ وَيُزِيلُ مِنْ ذَهْنِهِ مُرْكَبَ الْعَيْشِ عَلَى حِسَابِ ذَوِيهِ. كَمَا وَيُخَفِّفُ مِنْ مَسَاوِيِ اخْتِلَاطِهِ بِرِفَاقِهِ الْفَاسِقِينَ وَيُبْعِدُهُ بِالتَّالِيِ عَنِ الْإِمْعَانِ فِي الْإِجْرَامِ وَعَنِ الْإِنْحِطَاطِ الْخُلُقِيِّ.

وَالْعَمَلُ مَفْعُولٌ أَكِيدٌ بِتَقْرِيْبِ عَالِمِ السُّجْنِ مِنْ عَالِمِ الْمُجْتَمَعِ، إِذْ يُدْخَلُ إِلَى السُّجْنِ الْأَهْدَافَ وَالْمَشَارِيْعَ الَّتِي تَنْقُصُهُ. وَلِذَا تَرَى السَّجِينِ الْعَامِلَ أَكْثَرَ اتِّزَانًا وَتَفْهَمًا لِأَوْضَاعِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ أَيِّ سَجِينٍ عَاطِلٍ عَنِ الْعَمَلِ.

وَبِالنتيجة يَتِمَكَّنُ السَّجِينُ بِفَضْلِ اجْتِهَادِهِ فِي عَمَلِهِ مِنْ اكْتِسَابِ صَنَعَةٍ مَا تَرْفَعُ مُسْتَوَى مَعِيشَتِهِ دَاخِلَ السُّجْنِ وَنُعْدُهُ لِمُجَابَهَةِ الْحَيَاةِ خَارِجَهُ بِحَظِّ أَكْبَرَ فِي النِّجَاحِ.

وَنَظْرًا لِأَهْمِيَّةِ فَوَائِدِ الْعَمَلِ هَذِهِ يَتَوَجَّبُ عَلَى الْإِدَارَةِ أَنْ تَعْهَدَ بِتَنْظِيمِ

وإدارة عمَلِ السُّجَنَاءِ لَيْسَ إِلَى عَسْكَرِيِّينَ كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْحَالِ بَلْ إِلَى
أَخْصَائِيَّينَ فِي الصَّنَائِعِ وَالْمِهَنِ.

وَلَكِنَّ إِعْدَادَ السُّجَنَاءِ الْكَامِلَ لِلأَنْخِرَاطِ فِي الْمُجْتَمَعِ لَا يَتِمُّ إِلَّا عَن
طَرِيقِ التَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ.

(هـ) التَّعْلِيمُ وَالتَّوْجِيهُ

جاءَ فِي المادَّةِ ٦٧ مِنَ المَرْسُومِ المَذْكُورِ أَعْلَاهُ مَا حَرَفِيَّتُهُ: «يُوضَعُ
فِي كُلِّ سِجْنِ الكُتُبِ المُنَاسِبَةُ مِنْ أَدَبِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَصِحِّيَّةٍ تَحْتَ
تَصَرُّفِ المَسْجُونِينَ لِتَوْجِيهِهِمْ وَتَنْوِيرِهِمْ وَتَكُونُ هَذِهِ الكُتُبُ نَوَاةَ
المَكْتَبَةِ خَاصَّةً بِالسُّجَنَاءِ». أَمَّا فِي الوَاقِعِ فَلَا تَجِدُ فِي السُّجْنِ سِوَى
المَطْبُوعَاتِ الخَلَاعِيَّةِ وَرُسُومِ الحُورِيَّاتِ العَارِيَّاتِ المُلصَّقةِ عَلى كَافَّةِ
جُدْرَانِ العُرْفِ وَعَلى مَرَأَى مِنَ الجَمِيعِ.

وَلَا حَاجَةَ لِإفْنَاعِ أَحَدٍ بِضَرُورَةِ تَوْفِيرِ العِلْمِ لِّلسُّجَنَاءِ خَاصَّةً وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ
مِنَ الأُمِّيِّينَ وَلكِنَّ يَجْدُرُ بِنَا تَنْبِيهِ السُّلْطَاتِ إِلَى كَيْفِيَّةِ تَوْفِيرِ هَذَا
التَّعْلِيمِ التَّوْجِيهِيِّ عَلى أُسُسٍ تَتَّفِقُ وَوَاقِعَ السُّجَنَاءِ الخَاصِّ. وَعَلى
سَبِيلِ المِثَالِ يُمَكِّنُ أَنْ نَتَّصَوَّرَ صِيغَةَ أَحَدِ مَنَاهِجِ الدُّرُوسِ عَلى الشَّكْلِ
التَّالِي:

فِي المَرَحَلَةِ الأُولَى يَطَّلَعُ السُّجَنَاءُ عَلى أَوْضَاعِ السُّجْنِ وَمَشَاكِلِ
السُّجَنَاءِ وَيُلَقِّنُونَ وَسَائِلَ لِلاِسْتِفَادَةِ مِنْ مَحَاسِنِ السُّجْنِ وَكَيْفِيَّةِ تَلَاْفِي
مساوئِهِ.

وَفِي المَرَحَلَةِ الدَّرَاسِيَّةِ الثَّانِيَةِ يَطَّلَعُ المَسَاجِينُ عَلى أَهْمِيَّةِ المُجْتَمَعِ
وَعَلى الأَخْطَارِ الَّتِي تُهَدِّدُ مَقُومَاتِهِ وَبِالتَّالِي عَلى ضَرُورَةِ إِيجَادِ السُّجُونِ
لِلْمَحَافَظَةِ عَلى كِيَانِهِ.

وفي المرحلة الثالثة يسعى المدرّس لإفناع السُجَنَاءِ بِضَرُورَةِ إِجْرَاءِ الْمَصَالِحَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُجْتَمَعِ وَيُطَلِّعُهُمْ عَلَى الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِاسْتِعَادَةِ مَكَانَتِهِمْ فِيهِ عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْحُرِّيَّةِ.

أما عبءُ تَنْظِيمِ هَذَا التَّعْلِيمِ التَّوْجِيهِيِّ فَيَجِبُ أَنْ يُلْقَى عَلَى عَاتِقِ أَخْصَائِيَّيْنِ يَعْمَلَانِ بِالتَّعَاوُنِ، الْأَوَّلُ فِي عِلْمِ الْاجْتِمَاعِ (Sociologue) والثَّانِي فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ (Moraliste).

هَذَا مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ مَجَالَ اسْتِفَادَةِ السُّجَنَاءِ مِنْ هَذِهِ الْإِصْلَاحَاتِ مُتَوَقَّفٌ عَلَى جَعْلِ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ إِجْبَارِيَّيْنِ لِلْجَمِيعِ بِعَكْسِ مَا هُوَ الْحَالُ عَلَيْهِ الْآنَ.

وَيَتَبَيَّنُ مِنْ مُجْمَلِ بَحْثِنَا فِي الْإِصْلَاحِ أَنَّ إِدَارَةَ السُّجُونِ تَتَطَلَّبُ التَّعَاوُنَ مَعَ عَدَدٍ وَافِرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَخْصَائِيَّيْنِ، وَلِذَا فَإِنَّا نُؤَيِّدُ فِكْرَةَ إِسْنَادِ إِدَارَةِ مَصْلَحَةِ السُّجُونِ إِلَى مُوظِّفِيْنِ مَدْنِيَّيْنِ عَلَى أَنْ تَنْحَصِرَ مُهِمَّةُ الْعَسْكَرِيَّيْنِ فِي الْحِرَاسَةِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَمْنِ.

وَعَلَيْهِ فَلَا بُدَّ مِنْ إِجْرَادِ مَعْهَدٍ خَاصٍّ يَتَوَلَّى إِعْدَادَ جَمِيعِ مُوظِّفِي مَصْلَحَةِ السُّجُونِ حَسَبَ النَّتَائِجِ الْأَخِيرَةِ لِعِلْمِ إِصْلَاحِ السُّجَنَاءِ.

•

وَحُلَاصَةُ الْقَوْلِ، إِنَّ مَنْ اسْتَرْسَلَ فِي سَرْدِ مَشَارِيحِ الْإِصْلَاحِ لَا يَطْوُلُ بِهِ الْأَمْرُ لِيُدْرِكَ أَنَّ الْمَشْكَلَةَ لَيْسَتْ بِتَخْطِيطِ الْمَشَارِيحِ بَلْ بِإِخْرَاجِهَا إِلَى حَيْزِ التَّنْفِيذِ. إِنَّ إِمْكَانِيَّاتِ نَجَاحِ مَشَارِيحِ الْإِصْلَاحِ فِي سُجُونِنَا تَتَوَقَّفُ عَلَى مَدَى تَعَاوُنِ كَافَّةِ فِئَاتِ الْمَسْئُولِيْنَ مِنْ رَسْمِيَّيْنِ وَغَيْرِ رَسْمِيَّيْنِ مَعَ السُّجَنَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَمَعَ فِئَةٍ مِنَ الْمُتَطَوِّعِيْنَ صُمِّمَتْ عَلَى خِدْمَةِ السُّجَنَاءِ دُونَ مُقَابِلِ.

مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ إِصْلَاحِ السُّجُونِ إِشْرَاكُ السُّجَنَاءِ أَنْفُسِهِمْ فِي حَلِّ مُعْضَلَاتِهِمْ

وَذَلِكَ بِتَشْجِيعِهِمْ عَلَى تَأْسِيسِ وَإِدَارَةِ جَمْعِيَّاتٍ وَنَوَادٍ دَاخِلِ السُّجْنِ تَهْدِيفُ
إِلَى حَثِّ أَعْضَائِهَا السُّجْنَاءِ عَلَى تَبْنِيِ الْمَشَارِيعِ الْإِصْلَاحِيَّةِ وَالْمُسَاهَمَةِ فِي
وَضْعِهَا مَوْضِعَ التَّنْفِيزِ.

وَيَجِبُ أَنْ يَسْتَفِيدَ السُّجْنَاءُ مِنْ اسْتِعْدَادَاتِ بَعْضِ الْمُتَطَوِّعِينَ، مِنْ أَفْرَادِ
وَجَمَاعَاتِ، لِإِصْلَاحِ السُّجُونِ، خَاصَّةً وَأَنَّ إِمْكَانِيَّةً هَؤُلَاءِ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَمَلِيَّةَ
تَجْعَلُهُمْ جَدِيرِينَ بِإِنْفَازِ بَعْضِ الْمَشَارِيعِ الْإِصْلَاحِيَّةِ كَالْتَّصْنِيفِ وَالتَّعْلِيمِ
وَالتَّوْجِيهِ... دُونَ أَيِّ مُقَابِلٍ مِنَ الدَّوْلَةِ.

كَمَا يَجْدُرُ بِالْمُحَامِلِينَ أَنْ يُعِيرُوا الْقَضَايَا الْجَزَائِيَّةَ كَامِلَ اِهْتِمَامِهِمْ وَقُصَارَى
جَهْدِهِمْ وَخَاصَّةً أَلَّا يُؤَخَّرُوا فَضَلَ الدَّعَاوَى، بِالتَّأْجِيلَاتِ غَيْرِ الصَّرُورِيَّةِ،
لِيَلَّا يُؤَدِّي تَقْصِيرُهُمْ هَذَا إِلَى إِشْرَاكِهِمْ فِي مَأْسَاةٍ تَفْكَكُ أَسْمَى الْقِيَمِ
الْبَشَرِيَّةِ دَاخِلِ الْجُدْرَانِ الْمُظْلِمَةِ.

وَعَلَى قُضَاةِ التَّحْقِيقِ وَرُؤَسَاءِ الْمَحَاكِمِ الْجَزَائِيَّةِ أَنْ يَتَفَقَّهُوا السُّجْنَاءَ
بِصُورَةٍ دَوْرِيَّةٍ دَاخِلِ السُّجْنِ، مَرَّةً وَاحِدَةً فِي الشَّهْرِ لِلأَوَّلِينَ وَمَرَّةً كُلَّ
ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ لِلآخِرِينَ، كَمَا تُلْزِمُهُمْ بِذَلِكَ الْمَادَّةُ ٤٢٥ مِنْ قَانُونِ أُصُولِ
الْمُحَاكِمَاتِ الْجَزَائِيَّةِ. وَيُرْتَجَى أَيْضًا إِجَادُ تَشْرِيْعٍ جَدِيدٍ يَقْضِي بِتَعْلِيقِ
مَرَاسِيمِ تَعْيِينِ الْقُضَاةِ الْجُدُدِ عَلَى شَرْطِ إِقَامَتِهِمْ الْمُسَبِّقَةِ فِي السُّجْنِ
وَلَوْ لِمُدَّةِ أَسْبُوعٍ كَيْ يَتَمَرَّسُوا عَلَى التَّوْفِيقِ بَيْنَ مَدَى مَسْئُولِيَّةِ الْمُتَّهَمِ
وَمُدَّةِ اِعْتِقَالِهِ.

أَمَّا السُّلْطَةُ فَيَجْدُرُ بِهَا، وَقَدْ بَاشَرَتْ بِبِنَاءِ سِجْنٍ جَدِيدٍ، أَنْ تُبَادِرَ فَوْرًا
إِلَى تَنْفِيزِ نُصُوصِ الْمَرْسُومِ رَقْمِ ١٤٣١٠ تَارِيخِ ١١ شِبَاطِ ١٩٤٩ وَأَنْ لَا
تَتَأَخَّرَ بِوَضْعِ تَشْرِيْعٍ شَامِلٍ يَنْظُمُ سُجُونَنَا وَفَقًا لِلنَّتَائِجِ الْآخِرَةِ لِعِلْمِ
إِصْلَاحِ الْمَسَاجِينِ.

المحامي رولان أبو شديد

بيروت في ١٠/٣١/١٩٦٠